**أنطوان دي سانت إكسِبيري**

**أرض البشر**

**ترجمة محمد ساري**

**صديقي هنري غيومي، أهدي لك هذا الكتاب.**

تعلّمنا الأرض عن أنفسنا أكثر من جميع الكتب. لأنها تقاومنا. يكتشف الإنسان نفسه حينما يباري العقبات. ولكن التغلب عليها يستلزم امتلاك آلة. يجب امتلاك مٍنْجَر أو محراث. إن الفلاح في حرثه يكتشف شيئا فشيئا بعض أسرار الطبيعة، والحقيقة التي يبرزها كونية. وكذلك تفعل الطائرة، آلة الخطوط الجوية، فإنها ترمي بالإنسان إلى معانقة جميع المشاكل القديمة.

تتماثل أمام عينيّ دائما صورة أوّل ليلة حلّقت فيها باتجاه الأرجنتين، ليلة داكنة حيث وحدها كانت تتلألأ بعض الأضواء النادرة المبعثرة في السهل كما النجوم.

في محيط العتمة ذاك، كانت كل واحدة منها تؤشّر على معجزة وعي. في هذا البيت، نقرأ، نفكّر، نواصل بوح اعترافات. في ذاك الآخر، ربّما نبحث عن استقصاء الفضاء، ونغرق في حسابات حول سديمية أوندروماد. هنا نحبّ. من بعيد تبرق هذه النيران في الريف والتي تطالب بغذائها. إلى أقصى البيوت تحفظا، بيت الشاعر والمعلّم والنجّار. ولكن كم من نافذة مغلقة ومن رجال نائمين وسط هذه النجوم الحية...

ينبغي محاولة التحاق بعضنا ببعض. ينبغي محاولة الاتصال مع بعض هذه النيران المشتعلة بعيدا في الريف.

**1**

**الخطّ**

كان ذلك في 1926. كنت حديث العهد بالدخول كطيّار شاب في شركة "لاتيكويير" التي كانت تؤمِّن خطّ "تولوز- داكار"، قبل الخطوط الجوية البريدية وقبل الخطوط الجوية الفرنسية. هناك كنت أتعلّم المهنة. بدوري، وكما أصدقائي قبلي، خضعت مستسلما لمشاكل المبتدئين التي لا ينجو منها أي شاب قبل أن يحصل على شرف قيادة طائرة بريدية. تجارب التحليق، الانتقال بين تولوز وبربينيان، دروس كئيبة حول الطقس في عمق مرأب طائرات جليدي. كنا نعيش على خوف جبال أسبانيا التي لم نكن نعرفها بعد، وعلى احترام القدماء.

هؤلاء القدماء، كنا نجدهم في المطعم، أفظاظا، متحفظين، ناصحين إيانا بنوع من التعالي. وحينما يلتحق بنا أحدهم متأخرا بعد عودته من أليكانتي أو الدار البيضاء، الجلد مبلل من المطر، ويجرؤ أحدنا خجلا على مساءلته حول سفره، فكانت إجاباته المختصرة تبني لنا عالما عجيبا حول تلك الأيام العاصفة الغاصة بالفخاخ، بالحفر، بالشواطئ الصخرية التي تظهر فجأة والزوابع التي تقلع جذور أشجار الأرز. فكانت التنانين السوداء تحرس مداخل الوديان، فيما تكلّل باقات البروق القمم. يصون هؤلاء القدماء احترامنا لهم بعلم. ولكن من حين لآخر، لا يعود أحدهم، ليبقى محترمنا إلى الأبد.

أتذكّر هكذا عودة الطيّار "بوري"، الذي مات بعد ذلك في جبال "الكوربيير". جلس هذا الطيار الشيخ وسطنا وبدأ يأكل بثقل دون أن يقول شيئا، لا تزال كتفاه مثقلة بالجهد المبذول. كان ذلك في مساء يوم من تلك الأيام الداكنة حيث تكون السماء معفنة من أول خطّ إلى آخره، حيث تبدو للطيار كل الجبال كما لو أنها تتعفّر في الوسخ مثل المدافع التي تقطّعت حبالها والتي تحرث جسر السفن الشراعية القديمة. نظرت إلى بوري، ابتلعت ريقي وغامرت أخيرا بطرح سؤال ما إن كانت رحلته شاقة. لم يكن بوري يسمع، كان منحنيا على صحنه وجبهته مغضنة. بداخل الطائرات المكشوفة، أيام الأحوال الجوية السيّئة، يضطر قائد الطائرة إلى الانحناء خارج الزجاج الواقي كي يرى جيدا، فتصفر الريح في أذنيه مزمجرة لمدّة طويلة. أخيرا رفع بوري رأسه، بدا كما لو أنه سمعني، كما لو أنه تذكّر شيئا، فغرق فجأة في ضحكة شفافة. فأبهرتني تلك الضحكة، ذلك أن "بوري" قلّ ما يضحك، بتلك الضحكة الموجزة التي أنارت تعبه. لم يعط شرحا آخر حول انتصاره، أمال برأسه واستأنف مضغه في صمت. ولكن بداخل كآبة المطعم، وسط الموظفين الصغار الذين يسترحون هنا من أتعاب يومهم الصغيرة، بدا لي هذا الرفيق بكتفيه الثقيلتين في نبل غريب؛ كما لو أنني رأيت تحت جلده الخشن الملك الذي انتصر على التنين.

أخيرا جاء المساء الذي نادني فيه المدير إلى مكتبه. قال ببساطة:

- ستذهب غدا.

بقيت واقفا في مكاني، أنتظر أن يسرّح لي بالخروج. بعد صمت أضاف:

- إنك تعرف التعليمات؟

في تلك الفترة، لم تكن المحركات تمنح الأمن الذي تمنحها محركات اليوم. غالبا ما تتعطّل بضربة واحدة، دون سابق إخبار، في ضجيج كبير من الأواني المكسّرة. ونسلّم أنفسنا لقشرة صخور أسبانيا التي لا تمنح أدنى ملجئ. كنا نقول: "هنا، حينما ينكسّر المحرك، للأسف لا تتأخر الطائرة من الانكسار أيضا". ولكن الطائرة يمكن تعويضها. المهم قبل كل شيء هو أن لا نصطدم بالصخرة كالأعمى. لذلك كنا نُمنع من التحليق وسط بحار الغيوم فوق المناطق الجبلية، ويتعرض المخالف لعقوبات صارمة. حينما تتعطّل الطائرة وهي تغوص في الكتلة البيضاء، يمكنها الاصطدام بالقمم دون أن تراها.

من أجل هذا الخطر، ألح صوت ثقيل في ذلك المساء ولآخر مرّة على التعليمات:

- جميل جدا أن تحلق بالبوصلة في أسبانيا فوق بحار الغيوم، رائع جدا، ولكن...

ثمّ واصل بوتيرة أثقل:

- ... ولكن تذكّر جيدا: فوق بحار الغيوم... يمتد الوقت إلى ما لانهاية...

هكذا فجأة، يتخذ عندي هذا العالم الهادئ، الموحّد، البسيط الذي نكتشفه عند بروزنا من الغيوم، قيمة مجهولة. تحوّل ذلك اللطف إلى فخّ. تصوّرت ذلك الفخّ العظيم الأبيض الممتد هنا تحت قدميّ. ومثلما يمكن أن نتخيّله، لا تسود في الأسفل اهتياج البشر الصاخبة، ولا الجلبة، ولا حركة النقل الحيوية بالمدن، وإنما صمت مطلق، سكينة نهائية. تحول عندي هذا الصمغ الأبيض إلى حدّ فاصل بين الواقع واللاواقع، بين المعروف والمجهول. أدركت حينها أن أي عرض لا يملك كل معناه إلا من خلال ثقافة، حضارة، مهنة. يعرف سكان الجبال أيضا هذه البحار من الغيوم. ومع ذلك لا يكتشفون هذا الستار العجيب.

حينما خرجت من ذلك المكتب، أحسست بافتخار صبياني. بدوري سأكون، ابتداء من صباح الغد، مسئولا عن عدد من المسافرين، مسئولا عن بريد إفريقيا. ولكنني أحسست بتصاغر كبير. كنت أشعر بنفسي غير مستعد تمام الاستعداد. تفتقر أسبانيا إلى الملاجئ؛ خفت أن لا أعرف، في حالة حدوث عطل مفاجئ، أين أبحث عن استقبال حقل إنقاذ. تفحصت الخرائط الضئيلة دون أن أعثر عن التعاليم التي كنت بحاجة إليها؛ لذلك رحت أقضي السهرة عند رفيقي غيومي، وقلبي يفيض بخليط من الخجل والافتخار. لقد سبقني غيومي بسلك هذه الطرق. يعرف غيومي الحيل التي تسلّم مفاتيح أسبانيا. ينبغي أن يعلّمني غيومي.

حينما دخلت عنده، ابتسم:

- أعرف الخبر. هل أنت مسرور؟

اتجه نحو خزانة حائطية يبحث عن البورطو والكؤوس، ثمّ عاد إليّ، مبتسما دائما:

- نحتفل بالمناسبة. سترى، سيكون كل شيء على ما يرام.

هذا الصديق الذي ضرب فيما بعد الرقم القياسي في عدد المرات التي عبر فيها جبال الكورديير دي آند والمحيط الأطلنطي بطائرته البريدية، يبعث الثقة في الغير مثلما يشيع مصباح الضوء حوله. سنوات قبل ذلك، في تلك الأمسية، بقميصه ذات الكمين الطويلين، ابتسم لي بتلك الابتسامة المريحة الخاصة به وهو يشبك ذراعية تحت ضوء المصباح، ثمّ قال ببساطة: "صحيح أن العواصف والغيوم والثلوج ستزعجك أحيانا. حينئذ فكّر في جميع الذين عرفوا هذا قبلك، وقل ببساطة: ما نجح فيه غيري، يمكنني أن أنجح فيه بدوري". ومع ذلك، أمدّد خرائطي وأطلب منه أن يراجع معي مسار السفر. هكذا، منحنيا تحت المصباح، متكئا على كتف الرفيق القديم، استرجعت سكينة المعهد.

ما أغرب درس الجغرافيا الذي تلقيته ليلتها. لم يعلّمني غيوم أسبانيا؛ جعل من أسبانيا صديقة لي. لم يكلمني عن الهيدروغرافيا، ولا عن السكان، ولا عن الماشية. لم يكلمني عن غاديكس، بل حدّثني عن أشجار البرتقال الثلاثة التي تحدّ حقلا بقرب غاديكس: "احذَر منها، سجلها على خريطتك..." فأضحت أشجار البرتقال الثلاثة تحتل مكانا أكبر من هضبة السييرا نيفادا. لم يحدثني عن لوركا الشاعر، بل عن مزرعة لوركا البسيطة. مزرعة حيوية. عن صاحبها وصاحبتها. فجأة اتخذ هذان الفلاحان، التائهين في الفضاء، على بعد ألف وخمسمائة كيلومترا عنا، أهمية مبالغا فيها. بحكم مكانهما المتميّز في سفح الجبل، كانا مستعدين، تحت نجومهما، لتقديم مساعدتهما لإنقاذ الرجال، تماما مثلما يفعل حراس المنارات البحرية.

هكذا، نستخرج من نسيانهما، من بعدهما غير المقبول، تفاصيل تجاهلتها كل جغرافيات العالم. وحده نهر الأبر الذي يسقي المدن الكبرى يهم الجغرافيين. وليس هذه الوادي الصغير المختفي تحت الحشيش في غرب موتريل، هذا الأب المغذي لحوالي ثلاثين زهرة. "احذر من الوادي، يفسد الحقل... سجله على خريطتك أيضا". آه، سأتذكّر ثعبان موتريل. كان يبدو كأنه لا شيء، لا يكاد بخريره الخفيف أن يغري بعض الضفادع، ولكنه لا ينام إلا بعين واحدة. في جنة حقل الإنقاذ، يتمدّد تحت الحشيش، يترصدني على بعد ألفين كيلومترا من هنا. عند المناسبة الأولى، سيمسخني إلى باقة من النيران...

كما كنت أنتظر بعزم كبير الثلاثين كبشا، المصطفين في سفح الربوة، مستعدين للهجوم: "تتصوّر هذا الحقل شاغرا، ثمّ فجأة تتدحرج هذه الكباش تحت العجلات..." وأنا أجيب بابتسامة منبهرة لتهديد خادع.

شيئا فشيئا، تحوّلت أسبانيا خريطتي الممدّدة تحت المصباح إلى بلد العجائب. أسطّر بصليب الملاجئ والفِخاخ. أخطّ معالم لهذا الفلاح، ولهذه الكباش الثلاثين ولهذا الوادي الصغير. أمَوْضع هذه الراعية التي أهملها الجغرافيون في مكانها الدقيق.

حينما غادرت غيومي، أحسست برغبة ملحة في المشي في تلك الأمسية الشتوية الجليدية. رفعت ياقة معطفي وتجوّلت مزهوا بنفسي وسط المارين الجاهلين بوضعي. كنت فخورا بالاحتكاك بهؤلاء الغرباء بسري المدفون في قلبي. يجهلني هؤلاء البرابرة، ولكنهم سيسلمون لي همومهم وانطلاقاتهم عند فجر نهار الغد مع حمولة الأكياس البريدية. سيتحررون من آمالهم برميها بين يديّ. هكذا، ملفوفا بداخل معطفي، كنت أخط وسطهم خطوات حامية، ولكنهم لا يعرفون شيئا من عنايتي.

إنهم لا يتلقون الرسائل التي أتلقاها أنا من الليل. لأن هذه العاصفة الثلجية التي تهدّد في الأفق والتي ستعقّد سفري الأول تلدغ لحمي قبل كل شيء. تنطفئ النجوم واحدة بعد أخرى، فكيف لهؤلاء المتنزهين أن يدركوا ذلك؟ كنت الوحيد المعني بهذا السر. أخبَر بمواقع العدو قبل المعركة...

ومع ذلك أتلقى هذه الأوامر التي تجندني بصرامة قرب الواجهات الزجاجية المضيئة حيث تتلألأ هدايا احتفالات عيد الميلاد. في هذا الليل، يبدو أن جميع خيرات الأرض معروضة هنا، وأذوق نشوة الامتناع الفخورة. كنت فارسا مهدِّدا: فيما تهمُّني هذه البلورات البراقة وهذه المصابيح وهذه الكتب المُوَّجهة لاحتفالات المساء. الآن أسبح في الرذاذ، أنا طيار الخطوط البريدية، وأعضّ لب ليالي الطيران المرّ.

كانت الساعة الثالثة صباحا حينما أيقظوني. دفعت مغلاق النافذة بحركة حادة فلاحظت أن المطر يسقط على المدينة فلبست ثيابي منقبضا.

نصف ساعة بعد ذلك، كنت بدوري أجلس على حقيبتي الصغيرة في الرصيف المتلألئ بالأمطار منتظرا الحافلة الصغيرة التي ستقلني إلى المطار. كم من رفاق قبلي خضعوا لمثل هذا الانتظار يوم التكريس وقلوبهم منقبضة. أخيرا أطلت هذه المركبة القديمة من زاوية الشارع، تنشر حولها ضجيج الخردة، وأخذت حقي، مثل رفاقي، في الجلوس في ذلك المقعد محشورا بين الجمركي الذي لم يستيقظ جيدا بعد وبعض موظفي المكاتب. كانت رائحة المقفول تنبعث تلك الحافلة، وغبار الإدارة والمكتب العتيق حيث تندفن حياة رجل. كانت تتوقف كل خمس مائة مترا كي تسمح بركون كاتبة إدارية، جمركي أو مفتش. إن أولئك الذين يغطون في النوم يردون بغمغمة خافتة على التحية التي يلقيها القادم الجديد الذي يجلس مثلما اتفق ليستسلم بدوره للنوم. كان هذا النوع من النقل حزينا عبر طرقات تولوز غير السوية؛ ولم يكن الطيار المختلط بالموظفين يتميّز عنهم... ولكن أعمدة المصابيح العمومية تتتابع، ولكن أرضية الإقلاع تتقدّم، ولكن هذه الحافلة المترنّحة ليست إلا نغفة رمادية يخرج منها الإنسان ممسوخا.

يكون كل رفيق أحس هكذا بداخله في صباح مماثل، رفقة الموظف البسيط الذي لا يزال يرزح تحت حقد ذلك المفتش، ولادة مسئول بريد أسبانيا وإفريقيا، ذلك الذي سيواجه بعد ثلاث ساعات فقط وسط البروق تنين الملاجئ... الذي وبعد أربع ساعات بعد أن يكون قد تغلّب عليه سيقرّر بكل حرية، مالكا لجميع الصلاحيات، أن يسلك طريق البحر أو يهجم مباشرة فوق جبال ألكولي الصخرية، ليتباحث هكذا مع الزوبعة والجبل والمحيط.

يكون كل رفيق قد أحسّ، وهو مكوّم وسط فريق المسافرين الغفل، تحت سماء تولوز الشتوية الداكنة، في صباح مماثل، بذلك الملك يكبر بداخله حينما سيبدأ، بعد خمس ساعات، بالنزول في أعز الصيف وسط شمس أليكانتي الساطعة، بعد أن يكون قد خلّف وراءه الأمطار وثلوج الشمال، مطلقا الشتاء، مقلصا وتيرة المحرك.

اختفت تلك الحافلة القديمة، ولكن صرامتها وانعدام الراحة بها بقيت راسخة في ذكرياتي. ترمز جيدا إلى التحضير الضروري لأفراح مهنتنا الشاقة. يتخذ كل شيء تقشفا أخاذا. كما أتذكّر أنني علمت، ثلاث سنوات بعد ذلك، دون أن تبادل أكثر من عشر كلمات، موت "ليكريفان" الطيار، أحذ رفاقي المائة في هذا الخط، من أولئك الذين أخذوا تقاعدهم الأبدي في يوم أو ليلة مضببة.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحا، يسودها صمت مماثل، حينما سمعنا المدير، الجالس في زاوية مظلمة، يرفع صوته باتجاه المفتش:

- لم يلتحق "ليكريفان" بمطار الدار البيضاء هذه الليلة.

أجاب المفتش:

- آه... ماذا تقول...

لقد أُخرِج من حلمه، فقام بجهد كي يستيقظ، وأضاف ليظهر اهتمامه بكلام المدير:

- آه، نعم؟ لم يتمكن من المرور، فقفل راجعا؟ أليس كذلك؟

ومن عمق الحافلة، سمعنا جوابا عن سؤاله: لا. انتظرنا الباقي، ولكن لم يتفوه بكلمة إضافية. وبمرور الثواني الثقيلة، أصبح مؤكدا لدينا أن هذا "اللا" سوف لن تتبعه أية كلمة، وأن هذا "اللا" كان نهائيا، وأن "ليكريفان" لم يحط طائرته في الدار البيضاء، ولكنه أيضا سوف لن يهبط بها في أي مكان.

هكذا إذا، في فجر طيراني الأول، خضعت بدوري للطقوس المقدسة للمهنة، ووجدت نفسي أفقد ثقتي فانشغلت بالنظر عبر زجاج النافذة إلى أرضية الطريق حيث تنعكس فيه أضواء المصابيح العمومية الباهتة. كنت أرى سعفات رياح كبيرة تجري فوق برك المياه. كنت أفكّر: "ليس لدي الحظ... حقا... بمناسبة سفري الأول..." رفعت بصري باتجاه المفتش: "هل بسبب سوء الأحوال الجوية؟" لفظ المفتش نظرة ذابلة على الزجاج وغمغم بعد لأي: "هذا لا يدل على شيء". فتساءلت عن أي علامة نتعرف على الطقس الرديء. لقد محا غيومي سهرة أمس بابتسامة واحدة جميع النذائر التعيسة التي يمطرها علينا القدماء، ولكنها تعود إلى ذاكرتي: "إن ذلك الذي لا يعرف الخط حجرا وراء حجر، وتفاجئه زوبعة ثلجية، أشفق عليه... آه نعم... أشفق عليه..." كان عليهم إنقاذ مجدهم، فيحركون رؤوسهم ويتفرّسوننا بشفقة مزعجة نوعا ما، كما لو أنهم يشفقون على براءة مغروسة فينا.

بالفعل، كم مرة كانت هذه الحافلة بمثابة آخر ملاذ؟ ستون مرة، ثمانون؟ يقودها السائق الصموت نفسه، في صبيحة شتوية. نظرت حولي: تلمع نقاط متلألئة في الظلام، سجائر تتخلل تأملات عميقة. تأملات خاشعة لموظفين يشيخون. لكم واحد كان هؤلاء الرفاق بمثابة آخر موكب؟

استرقت السمع أيضا إلى أسرار تتبادل في صوت خافت. تتعلّق بالمرض والمال والانشغالات المنزلية الحزينة. تظهر جُدران السجن الكئيب الذي انغلق فيه هؤلاء الرجال. فجأة ظهر لي وجد القدر.

يا رفيقي الجالس هنا بقربي، الموظف الشيخ، لا أحد هرّبك من السجن ولسن مسئولا عن وضعك. بنيت سِلمك بقوة إعماء جميع منافذ النور بالإسمنت مثلما تفعل الحشرات بمأرضتها. كوّرت نفسك بداخل أمنك البورجوازي ورتابة أيامك وطقوسك الخانقة في حياتك الإقليمية، رفعت هذا الحصن الورع ضد الرياح والعواصف البحرية والنجوم. لا تريد أن تنشغل بالمشاكل الكبرى، وجدت صعوبة كبيرة لنسيان وضعك البشري. لست قاطن كوكب تائه، لا تطرح أسئلة ليست لها أجوبة: أنت بورجوازي صغير من تولوز. لم يمسكك أحد من كتفيك قيل أن يفوت الأوان. الآن، جف الطين الذي صنعك وأصبح صلبا، ولا شيء بداخلك يستطيع من الآن فصاعدا أن يوقظ الموسيقار النائم أو الشاعر أو الفلكي الذين كانوا ربما ينبضون بالحياة داخلك. لم أعد أشتكي من عواصف المطر. يفتح لي سحر المهنة عالما أواجه فيه بعد ساعتين فقط التنائن السوداء والقمم المكللة بضفائر بروق زرقاء، حيث أقرأ طريقي في النجوم عند قدوم الليل والتحرر من اليأس.

هكذا جرت بدايتنا المهنية وبدأنا نسافر. كانت هذه الأسفار في الغالب بلا مشاكل. نهبط إلى أعماق حقلنا آمنين كما الغطاسين المحترفين. اليوم، نستطيع القول أننا اكتشفنا حقلنا جيدا. لا يرتمي الطيّار والميكانيكي والمكلف بالراديو في مغامرة غير محسوبة وإنما ينغلقون بداخل مخبر. يطيعون للعبة الإبر الممغنطة وليس لتتالي المناظر. في الخارج، تغطس الجبال في العتمة، ولكنها لم تعد جبالا. إنها قوات غير مرئية ينبغي حساب المسافة التي تفصلنا عنها. بهدوء، يسجّل المكلف بالراديو الأعداد تحت ضوء المصباح، يؤشّر الميكانيكي على الخريطة، أما الطيار فيعيد خطّ طريقه إن حادت الجبال، إن انتشرت أمامه في صمت وسرّ التحضيرات العسكرية تلك القمم التي كان يود اجتيازها على اليسار. أما المكلفون بالراديو على سطح الأرض، فيسجلون على كراريسهم، في الثانية نفسها، إملاء رفيقهم: "منتصف الليل وأربعون. الطريق 230. كل شيء على ما يرام هنا."

هكذا يسافر طاقم الطائرة اليوم. لا يشعر بأنه في حركة متواصلة. إنه بعيد عن كل معلم مثل الليل في البحر. ولكن المحركات تملأ هذه الغرفة المضيئة بارتجاف يغيّر لبّها. ولكن الساعة تدور. وتتواصل خيميائية غير مرئية بداخل هذه المربعات، وهذه المصابيح-الراديو، وهذه الإبر الممغنطة. من ثانية إلى أخرى، تحضّر هذه الحركات السرية وهذه الكلمات المخنوقة وهذه العناية معجزة كبرى. وبالتأكيد، حينما تحين الساعة، يستطيع الطيار إلصاق جبهته بالزجاج. ولد الذهب من العدم: يشعّ بداخل نيران المهبط.

ومع ذلك عرفنا جميعا الأسفار التي شعرنا بها فجأة، عند نقطة ضوء خاصة، على بعد ساعتين من المهبط، بإحساس غريب لم نشعر به ولو كنا في الهند ولا نأمل في العودة أبدا.

هكذا، حينما اجتاز مرموز لأول مرة الأطلنطي الجنوبي بواسطة الطائرة المائية، أشرف عند سقوط الليل على منطقة "بوت أو نوار" ورأى مقابلا له أذيال الزوابع تلتحم من دقيقة إلى أخرى مثلما نشاهد بناد جدار، قبل أن يخيّم الليل على هذه الاستعدادات ويخفيها. وبعد ساعة عندما تسلل تحت الغيوم، انفتح على مملكة عجيبة.

ارتفع إعصار بحري بدا له مكوما وساكنا مثل أعمدة معبد سوداء. منتفخ على الأطراف، يحمل قبة العاصفة الداكنة والمنخفضة، ولكن شرائط النور تسقط عبر تشققات القبة، ويلمع البدر بين الأعمدة على بلاطات البحر الباردة. فواصل مرموز تحليقه عبر تلك الآثار غير المسكونة، مائلا من ساقية ضوء إلى أخرى، مستديرا تلك الأعمدة العملاقة حيث يرعد صعود لج البحر، قضى أربع ساعات طول مسالك القمر للخروج من المعبد. كان ذلك المشهد ضاغطا عليه إلى حدّ أن مرموز انتبه عندما اجتاز الـ "بوت أو نوار" أنه لم يشعر بالخوف.

كما أتذكر أيضا إحدى تلك الساعات التي نجتاز فيها حدود العالم الواقعي: إن البيانات

التي وصلتنا عبر برقيات المِنقَل الإشعاعي من قبل المحطات الأرضية الصحراوية كانت كلها خاطئة تلك الليلة، وقد ضللتنا بشكل خطير أنا ونيري المكلف البرقيات الإذاعية. حينما رأيت بريق ماء في عمق هاوية ضباب، أدركت أن طائرتي تتجه بقوة ناحية الساحل، ولم نكن نعرف منذ كم وقت ونحن نجوب البحر.

لم نكن مقتنعين أننا سنتمكن من الالتحاق بالشاطئ لأن البنزين ربما سينقصنا. وعندما التحقنا بالشاطئ، كان علينا أن نعثر على مهبط. كان الوقت غياب القمر. كنا بلا معلومات زاوية، ولا نسمع أي صوت، فأصبحنا شيئا فشيئا عميانا. انطفأ القمر كما الجمرة الشاحبة، في ضبابة أشبه برصيف ثلج. بدورها، تغطت السماء فوقنا بالغيوم، فكنا نحلِّق وسط هذه الغيوم وتلك الضبابة في عالم مفرغ من كل نور ومن جوهر.

رفضت مراكز المهابط إخبارنا عن موقعنا: "لا توجد بيانات... لا توجد بيانات..."، لأن صوتنا يصلهم من كل الجهات ومن لا مكان.

فجأة، بعد أن انتابنا اليأس، برزت نقطة لامعة في الأفق، على اليسار. أحسست بفرح عاصف، انحنى نيري عليّ وسمعته يغني. لا يمكن أن يكون إلا نور مهبط، لا يمكن أن تكون إلا منارة مهبط، لأن الصحراء بالليل تنطفئ كلية وتتخذ شكل إقليم كبير ميّت. ولكن النور تلألأ قليلا ثمّ انطفأ. كانت طائرتنا متجهة نحو نجم مرئي عند غروبه، ولبعض الدقائق فقط، بعيدا في الأفق، بين طبقة الضبابة والغيوم.

بعد ذلك رأينا ارتفاع أضواء أخرى، وبدأنا نوجه طائرتنا نحو كل واحدة منها وبداخلنا أمل متأجج. وحينما يبقى النور متواصلا، نجرّب المحاولة الحاسمة. يصدر نيري أمرا لمهبط سِسْنيروس: "نور في الأفق، أطفئوا منارتكم وأشعلوها ثلاث مرات". سِسْنيروس تطفئ وتشعل منارتها، ولكن النور الذي نراقبه يتواصل ولا يغمز، إنه نور نجمة مضلِّلة. برغم البنزين الذي ينقص، كنا في مرة ننخدع بالطُعم المذهّب، إنه في كل مرة نور منارة حقيقي، وفي كل مرة المهبط والحياة، ثمّ نضطر إلى تغيير النجمة.

عندئذ شعرنا حقا أننا تائهون في فضاء ما بين الكواكب، وسط مائة كوكب يستحيل الوصول إليها، باحثين عن الكوكب الحقيقي الوحيد، كوكبنا، الوحيد الذي يحوي مناظرنا المألوفة، منازلنا الصديقة، حناننا.

ذلك الكوكب الوحيد الذي يحوي... سأقول لكم الصورة التي بدت لي، وربما سيبدو لكم الأمر ساذجا. ولكننا قد نحافظ على انشغالاتنا الإنسانية في أحلك الظروف، وكنت أحس بالعطش، وكنت أحس بالجوع. إذا وجدنا سسنيروس، سنواصل سفرنا بعد تزودنا بالبنزين وسنهبط في الدار البيضاء، في رطوبة الفجر. انتهى العمل. سننزل أنا ونيري إلى المدينة. سنجد عند الفجر تلك المقاهي وهي تفتح أبوابها... أنا ونيري، سنجلس حول طاولة، آمنين، ساخرين من الليلة الماضية، أمام حلويات ساخنة والقهوة بالحليب. سنتلقى، أنا ونيري، هدية الحياة الصباحية. هكذا إذا، لا تلتحق تلك القروية العجوز بربّها إلا عبر صورة مرسومة، ميدالية ساذجة، سبحة: من أراد أن يسمعنا كلامه، فما عليه إلا أن يخاطبنا بلغة بسيطة. هكذا إذا، تتكوّم فرحة الحياة بالنسبة إلي في هذه الجرعة الأولى المعطرة الساخنة، في هذا الخليط من الحليب والقهوة والقمح الذي نتقرّب عبره من المروج الهادئة والمزارع الفاتنة والحصاد الذي نتقرب عبره من الأرض كلها. ومن بين جميع تلك النجوم، لا توجد إلا واحدة، إن سخرت نفسها لخدمتنا، ستشكّل ذلك القدح المعطر المزيّن لفطور الصباح.

تتراكم المسافات العصية الاجتياز بين سفينتنا وتلك الأرض الآهلة. تكمن جميع كنوز الدنيا في حبة غبار تائهة وسط كوكبة النجوم. يحاول الفلكي نيري التعرف على تلك الحبة وهو لا يكف عن توسله للنجوم.

فجأة، دفعت قبضته كتفي. قرأت على الورقة التي أخبرتني بها تلك اللطمة: "تلقيت برقية رائعة، كل شيء على ما يرام..." وانتظرت بقلب خافق أن يكمل تسجيل الكلمات الخمس أو الست التي ستنقذنا. أخيرا تلقيتها، تلك الهدية من السماء.

كانت البرقية مؤرخة من الدار البيضاء التي غادرناها مساء أمس. وصلتنا فجأة برقية متأخرة بعد ألفين كيلومترا، بين الغيوم والضبابة، تائهين في البحر. كانت البرقية صادرة من مُمثل الدولة بمطار الدار البيضاء. قرأت: "أجدني مجبرا سيّد سانت إكسيبيري على طلب عقوبة لك إلى باريس، إنك حلقت قريبا جدا من المستودعات عند مغادرتك الدار البيضاء." صحيح أنني أقمت دورة قريبة جدا من المستودعات. صحيح أيضا أن هذا الرجل يؤدي وظيفته عندما يغضب. كنت سأتلقى هذا اللوم بخضوع في مكتب بداخل المطار. ولكنه التحق بنا في المكان الذي ليس له أن يلتحق بنا. يفرقع بين هذه النجوم النادرة، هذه الساقية من الضباب، وهذا الطعم المهدّد للبحر. كنا نمسك بين أيدينا مصائرنا، ومصير البريد والسفينة معا، كنا نجد مشقة في قيادة الطائرة للحفاظ على حياتنا، وهذا الرجل يقطّر حقده الصغير ضدنا. والغريب أننا لم نغضب أنا ونيري، بل انتابنا ابتهاج مفاجئ ورحب. هنا، كنا الأسياد، جعلنا نكتشف ذلك. ألم يرَ هذا العريف أننا ارتقينا إلى رقباء؟ يزعجنا في غفوتنا، ونحن نذرع المائة مترا بين الدب الأكبر والقوس، حينما كانت خيانة القمر هي قضيتنا الوحيدة التي جلبت اهتمامنا.

إن واجب هذا الرجل العاجل، واجب المعمورة الوحيد الذي ينبغي القيام به هو أن يمدنا بأرقام دقيقة، نحن بأمس الحاجة إليها بين نجومنا. وكانت هذه الحسابات خاطئة. أما الباقي، ومرحليا، فما على الكوكب إلا أن يصمت. كتَب لي نيري: "عوض الانشغال بالتفاهات فما عليهم أن يعيدوننا إلى مكان ما..." وكان يعني بــ"هم" جميع شعوب الأرض ببرلمناتهم، ومجالس شيوخهم وبحريتهم وجيوشهم وأباطرتهم. أعدت قراءة رسالة ذلك المجنون الذي يزعم أن له قضية ضدنا، فأدرت الطائرة باتجاه المريخ.

أنقذتنا صدفة غريبة: حانت الساعة التي فقدت فيها أمل الالتحاق بسسنيروس، فسلكت خطا عموديا لاتجاه الشاطئ، وقرّرت التحليق في هذا الاتجاه إلى غاية انتهاء البنزين. هكذا وفرت لنفسي بعض الحظوظ لتجنب السقوط في عرض البحر. لسوء الحظ، جذبتني أضوائي الخادعة إلى مكان مجهول. لسوء الحظ أيضا لم تترك لنا الضبابة السميكة التي كنا مجبرين في أحسن الأحوال على الارتماء وسطها في عمق الليل إلا حظوظا بسيطة جدا للهبوط في أمان. ولكن لم يكن لدي أي اختيار.

كانت الوضعية شفافة إلى حدّ أنني هززت كتفي بحزن حينما مرّر لي نيري رسالة كانت ستنقذنا لو نزلت ساعة قبل ذلك. " قرّرت سسنيروس أن تعطينا البيانات. تشير سسنيروس: مائتان وستة عشر مشكوك في أمرها..." لم تكن سسنيروس مخفية في العتمة. اتضح أنها على يسارنا فعلا. نعم ولكن على أية مسافة؟ تبادلنا أنا ونيري حديثا مقتضبا. فات الأوان. كنا متفقين. إذا قررنا الالتحاق بسنيروس، سنقلل من حظوظنا للالتحاق بالشاطئ. قال نيري: "ربما يكفينا البنزين لمدّة ساعة، ضع الاتجاه في الثالثة والتسعين."

بعد ذلك، استيقظت مراكز المهابط الواحدة وراء الأخرى. اختلط مع حوارنا صوت أقادير والدار البيضاء ودكار. أخبرت المراكز الإذاعية لكل هذه المدن مطاراتها. وأخبر رؤساء المطارات الرفاق. ثمّ شيئا فشيئا، تجمعوا حولنا كما يحدث حول سرير مريض. حرارة غير نافعة، ولكنها حرارة على كل حال. نصائح عقيمة، ولكنها لطيفة جدا.

فجأة، ظهرت تولوز. تولوز، رأس الخطوط، تائهة هناك على بعد أربعة ألاف كيلومترا. بدءا استقرت تولوز بيننا وبلا مقدمات: "هل الطائرة التي تقودونها هي أفـ (نسيت رقم التسجيل)" – "نعم." – "نخبركم بأن هذه الطائرة لا تملك خزانا عاديا. بقي لكم ساعتان من الطيران. اتجهوا نحو سسنيروس."

هكذا، إن الضروريات التي تفرضها مهنة ما تغير وتثري العالم. لا يحتاج الطيار إلى ليلة مماثلة كي يكتشف معنى جديدا للمشاهد القديمة. قد يكتسي المنظر الرتيب الذي يتعب المسافر معنى آخر لدى طاقم الطائرة. إن هذه الكتلة من الغيوم التي تحجب الأفق لم تعد ديكورا فقط: ستشغل عضلاته وتطرح عليه مشاكل. إنه يأخذ هذه الكتلة بعين الاعتبار، يقيسها، يقيم حوارا حقيقيا معها. ها هو رأس قمة، لا يزال بعيدا: ما هو الوجه الذي سيُظهره؟ عند بروز الهلال، سيكون المؤشر اللائق. ولكن إذا كان الطيار يحلق كالأعمى، ويصحّح انحرافه بصعوبة، ويشك في دقة موقعه، سيتحوّل رأس القمة إلى مادة متفجرة، سيملأ كامل الليلة بتهديداته، مثلما تهدّد كامل البحر قنبلة واحدة عائمة في اللج الذي يدفعها على هوى التيارات المائية.

هكذا تتغير المحيطات أيضا. تبقى العاصفة غير مرئية للمسافرين البسطاء: حينما نراها من الأعلى، لا تمنح الأمواج كل تضاريسها، وتبدو كتل الرذاذ ساكنة. وحدها الجريد الكبيرة البيضاء تتمدّد وعلى سطحها العروق والنتوءات المأخوذة في شكل من الجمود. ولكن الطاقم يقرّر منع أي هبوط بحري. تعتبر هذه الجريد بالنسبة إليه مثل أزهار كبيرة مسممة.

إن الطيار الذي يحلق في مسافة خط ما لا يتمتع بمشهد بسيط حتى وإن كان السفر سفرا سعيدا. إن لا يعجب فقط بهذه الألوان من الأرض والسماء، وبآثار الرياح على البحر، وبهذه الغيوم المذهبة عند الغسق، وإنها يتأملها أيضا. ما أشبهه بالفلاح الذي يقوم بدورة في مزرعته والذي يتوقع بفضل ألف علامة إعلان سقوط المطر، فإن طيار الخط بدوره يفط علامات الثلج، علامات الضباب، علامات الليلة الهادئة. إن الآلة التي يبدو من الوهلة الأولى أنها تبعده عن المشاكل الطبيعية الكبرى، ولكنها في حقيقة الأمر تخضعه إليها بصرامة أكبر. وسط هذه المحكمة الشاسعة التي تشكلها له سماء عاصفة، يتصارع الطيار حول بريده مع ثلاثة أرباب أولية ألا وهي الجبل والبحر والعاصفة.

**2**

**الرفاق**

**1**

أسّس بعض الرفاق، ومن بينهم مرموز، الخط الفرنسي من الدار لبيضاء إلى دكار، عبر الصحراء المتمرّدة. كانت محركات تلك الفترة لا تقاوم طويلا. لقد سلّم عطل مرموز إلى عرب الصحراء الذين تردّدوا في قتله، فأبقوه سجينا لمدّة خمسة عشر يوما قبل أن يبيعوه. فاستأنف مرموز طيرانه البريدي فوق تلك الأقاليم نفسها.

حينما انفتح خط أمريكا، كلّف مرموز، دائما في الطليعة، بدراسة خط بوينوس أيرس /صنتياغو، وبعد جسر على الصحراء، ببناء جسر آخر فوق جبال الآند. سلموه طائرة تحلق على سقف خمسة آلاف ومئتين مترا. كانت رؤوس قمم جبال الكورديير ترتفع إلى غاية سبعة آلاف مترا. فطار مرموز بحثا عن ثقوب المرور. فبعد الرمال، ها هو مرموز يواجه الجبال، بتلك الرؤوس التي تطلق وشاحاتها الثلجية عند هبوب الرياح، شحوب الأشياء قبل اندلاع العاصفة، هذه الزوابع الصلبة التي يصادفها الطيار بين جدارين من الصخور، وتجبره على نوع من المصارعة بالسكاكين. تجنّد مرموز في خوض هذه المعارك دون ان يعرف شيئا من خصمه، دون أن يعرف إن كان سيخرج حيا من ذلك العناق. كان مرموز "يجرّب" من أجل الآخرين.

أخيرا، ومن فرط "التجريب"، اكتشف نفسه يوما سجينا وسط جبال الأند.

اضطر مرموز برفقة الميكانيكي إلى الهبوط الاضطراري على هضبة بجدرانها العمودية على علة أربعة آلاف مترا، وبحثا لمدّة يومين عن منفذ للهروب. وقعا في فخّ. حينئذ لعبا ورقتهما الأخيرة، فانقضا بالطائرة في الفراغ، وقفزا بقوة على الأرضية غير المتساوية إلى غاية عمق الجرف. إن الطائرة في هبوطها اتخذت سرعة كبيرة بحيث استجابت أخيرا لأوامر القيادة. اعتلى بها مرموز لمواجهة رأس قمة، لمس القمة، واكتشف الماء المتسرّب من كل الأنابيب التي ثقبها الجليد في الليل، وهي معطلة بعد سبع دقائق من التحليق، السهل الشيلي تحته، كما أرض موعودة.

في الغد، أعاد المغامرة.

بعد أن اكتشف جبال الأند جيدا، وأقام تقنيات العبور، سلّم مرموز هذا الخط إلى رفيقه غيومي وانطلق يستكشف الليل.

لم تكن إضاءة المهابط مستوية تماما، وفي الليالي الحالكة، كانت توضع على أرضيات الوصول أمام مرموز ثلاثة نيران بنزين متراصفة الواحدة بقرب الأخرى.

عرف كيف يستثمرها للهبوط السليم، ففتح الطريق.

بعدما روّض الليل جيدا، جرّب مرموز المحيط. ابتداء من 1931، بدأ البريد ينقَل لأول مرة في أربعة أيام من تولوز إلى بيونيس أيرس. عند العودة، أصيبت طائرة مرموز بتعطّل سببه فقدان كلي للزيت في وسط المحيط الأطلنطي الجنوبي وفي بحر هائج. أنقذته باخرة، بمعية طاقمه وبريده.

هكذا، تمكن مرموز من استصلاح طرق الصحراء والجبال والليل والبحار. سقط أكثر من مرة وسط الرمال والجبال والليل والبحار. وحينما يعود سالما، فكان ليعدّ نفسه للمغامرة ثانية.

أخيرا، وبعد اثنتي عشر سنة من العمل، وحينما كان يحلق مرة أخرى الأطلنطي الجنوبي، أعلن عبر رسالة مقتضبة أن محركه اليميني الخلفي معطّل. وخيّم الصمت.

لم يكن الخبر مقلقا، ومع ذلك وبعد عشر دقائق من الصمت، بدأت جميع إذاعات الخط من باريس إلى بيونيس أيرس ترتقب أدنى صوت في قلق وحيرة. إذا كان تأخير عشر دقائق لا يكتسي أهمية كبرى في الحياة اليومية، فإنها تكتسي في الطيران البريدي دلالة ثقيلة. في قلب هذا الزمن الميت، توجد حادثة غير معروفة بعد مسجونة بداخله. سواء كانت حادثة تعيسة أو غير ذي أهمية، فإنها قد وقعت وانتهى الأمر. أطلق القدر حكمه، وهو حكم لا يقبل النقض: يد من حديد قادت هذا الطاقم نحو الهبوط في البحر بلا خطورة أو الارتطام. ولكن الحكم لا يعرفه أولئك الذين ينتظرونه.

من منا لم يعرف هذه الآمال الهشّة، هذا الصمت الذي يزداد سوءا من دقيقة إلى أخرى مثل مرض حتمي؟ راودنا الأمل، ثمّ مرّت الساعات، وشيئا فشيئا بدا الأمر متأخرا. كان علينا أن ندرك أن رفاقنا لن يعودوا، أنهم يستريحون في عمق ذلك الأطلنطي الجنوبي الذي حرثوا مرارا وتكرارا سماءه. أكيد أن مرموز تخندق خلف عمله، أشبه بالحصاد الذي تمدّد في حقله بعد أن ربط جيدا باقته. حينما يموت رفيق هكذا، يبدو موته كفعل يندرج ضمن طبيعة المهنة، صحيح أنه جارح، ولكنه جرح أقل ربما من جرح موت آخر. أكيد أنه ابتعد عنا، هذا الذي عاش آخر هبوطه، ولكن حضوره لا ينقصنا في العمق مثلما يمكن للخبز أن ينقصنا.

إننا تعودنا بالفعل انتظار اللقاءات طويلا. ذلك أن رفاق الخط البريدي موزّعون عبر بقاع العالم، من باريس إلى صانتياغو في الشيلي، معزولون شيئا ما مثل الحراس الذين لا يتبادلون الكلام بينهم. وحدها صدفة الأسفار تستطيع جمع أعضاء العائلة الكبرى المبعثرين هنا وهناك. حول طاوية مساء واحد، في الدار البيضاء، في داكار، في بيونيس أيرس، نستأنف، بعد سنوات من الصمت، تلك الحوارات المتوقفة، نتصالح مع الذكريات القديمة. وبعد ذلك، نكمل الرحلة. هكذا تكون الأرض في آن واحد مقفرة وعامرة. عامرة بتلك الحدائق السرية، المخفية، الوصول إليها عصي دائما، ولكن المهنة ترجعنا إليها دوما، يوما ما. ربما تبعدنا الحياة عن الرفاق، تمنعنا من التفكير فيهم، ولكنهم يوجدون في مكان ما، لا نعرف أين بالضبط، صامتين أو منسيين، ولكنهم أوفياء. وإذا صادف أن التقينا بهم، يهزوننا من الكتفين باندفاعات أفراح جميلة. طبعا، إننا متعودون على الانتظار...

ولكننا نكتشف شيئا فشيئا أن الضحكة الشفافة لهذا سوف لن نسمعها أبدا، كما نكتشف أن هذه الحديقة منعت علينا إلى الأبد. حينئذ يبدأ حدادنا الحقيقي الذي ليس مؤلما وإنما مرا نزعا ما.

بالفعل، لا شيء أبدا سيعوّض فقدان رفيق. لا نخلق الرفاق القدماء. لا شيء يساوي كنز مثل تلك الذكريات المشتركة، وتلك الساعات السيئة التي قضيناها معا، وتلك الخلافات الصغيرة، وتلك المصالحات، واندفاعات القلب الصادقة. لا يمكن نعيد بناء هذه الصداقات. إذا غرسنا شجرة بلوط، فلا جدوى من الانتظار أن نتظلل تحت أوراقها الوارفة.

هذه سنة الحياة. اغتنينا أولا، غرسنا لسنوات طويلة، ثمّ تأتي السنوات التي يفكك فيها الزمن هذا العمل ويقلعه من الجذور. من الآن فصاعدا، يختلط مع حدادنا الندم السري لتقدمنا في العمر.

هذه هي الأخلاق التي علّمنا إياها مرموز آخرون. ربما كانت عظمة أية مهنة هي قبل كل شيء توحيد البشر: إنه الترف الحقيقي، إنه ترف العلاقات الإنسانية.

حينما نعمل من أجل تلبية الرفاهية المادية فقط، إننا نبني سجننا بأنفسنا. ننغلق بداخله في عزلة قاتلة، بمالنا المزيّف الذي لا يمنح أي سعادة للعيش.

لو أبحث في ذكرياتي عن تلك التي تركت بداخلي طعما دائما، إذا قمت بإحصاء الساعات الثمينة فعلا، أكيد أنني سأعثر على تلك التي ليس بمقدور أي ثروة أن تمنحها لي. لا نشتري صداقة واحد مثل مرموز، رفيق ربطتني به وإلى الأبد تلك التجارب الرائعة التي عشناها معا.

لا يمكن للمال أن يشتري تلك الليلة من الطيران ونجومها المائة ألف، وتلك السكينة، وتلك السيادة لبضع ساعات.

كما لا يمكن للمال أن يشتري ذلك المظهر الجديد للعالم بعد المرحلة الشاقة، وتلك الأشجار، وتلك الأزهار، وتلك النساء، وتلك الابتسامات الملوّنة حديثا من أجل استقبال الحياة التي أعيدت إلينا مع الفجر وهذا الحفل من الأشياء الصغيرة التي تكافئنا.

ولا تلك الليلة التي عشناها منشقين والتي عادت إلى ذاكرتي.

بالصدفة انحطت ثلاث طائرات بريدية عند سقوط الليل في ساحل الساقية الحمراء. هبط رفيقي ريغال أولا على إثر تكسير ساعد بالمحرك؛ بعد ذلك هبط رفيق آخر، بورغات، كي يقدّم المساعدة لطاقم الطائرة المعطلة، ولكن خللا بسيطا أجبره على البقاء أرضا. أخيرا هبطت بعدما كان الليل قد خيّم كلية. قرّرنا إنقاذ طائرة بورغات، ومن أجل ذلك، كنا مجبرين على انتظار النهار.

قبل سنة من ذلك، تعرّض رفيقان لنا، غورب وإيرابل، في هذا المكان بالذات إلى القتل الشنيع من قبل المنشفين. كنا نعرف اليوم أن جماعة من المتمردين تتكون من حوالي ثلاثمائة مسلح تخيّم في مكان ما في منطقة بوجادور. أكيد أن هبوط ثلاث طائرات الواحدة بعد الأخرى يكون قد أثير انتباههم، فبدأنا سهرة قد تكون الأخيرة.

أقمنا في ذلك المكان لقضاء الليل. أخرجنا من مخازن الطائرات خمسة أو ستة صناديق من السلع، أفرغناها وصنعنا بها دائرة، وفي عمق كل صندوق، كما في عمق مِحْرس، أشعلنا شمعة هزيلة، غير محمية كما ينبغي من الرياح. هكذا، بنينا قرية رجال وسط الصحراء، على قشرة الكوكب العارية، في عزلة السنوات الأولى للعالم.

اجتمعنا لقضاء الليل على الساحة الواسعة لقريتنا الصغيرة، فوق هذه القطعة الرملية حيث تبعث صناديقنا نورا باهتا مرتجفا وانتظرنا. انتظرنا الفجر الذي سينقذنا أو قبائل الأعراب. ولا أعرف ما الذي أعطى لتلك الليلة مذاق ليلة عيد الميلاد. قصصنا على بعضنا البعض ذكرياتنا، كما تبادلنا المزح وغنينا.

ذُقنا ذلك الورع الخفيف الذي عادة ما نعيشه في قلب حفل مُحضّر بعناية.ومع ذلك كنا فقراء للغاية. الريح، الرمال والنجوم. أسلوب عصي يليق بتدريب رهبان الأترابية. ولكن ستة أو سبة رجال لا يملكون شيئا في هذا العالم غير ذكرياتهم يتقاسمون ثروات غير مرئية فوق هذا الحصير غير المضيء جيدا.

أخيرا التقينا. كنا نسير لمدة طويلة جنبا إلى جنب، كل واحد منغلق بدخل صمته، أو اننا نتبادل كلمات لا تحمل شيئا. وها هي ساعة الخطر تقترب. لذلك، نتكاتف بدفء وصدق. نكتشف أننا ننتمي إلى أمة واحدة. نتوسّع باكتشاف وعي آخر. ننظر إلى بعضنا البعض بابتسامة كبيرة. كنا أشبه بذلك السجين المحرر والذي تفتنه رحابة البحر.

**2**

سأقول بضع كلمات عنك يا غيومي، وسوف لن أزعجك بإلحاح ثقيل حول شجاعتك وقيمتك المهنية. أريد أن أتحدّث عن شيء آخر بسرد أجمل حكاياتك.

توجد خَصْلة لا اسم لها. ربّما كانت "الرصانة" ولكن الكلمة قد لا تفي بالمعنى المطلوب. لأن هذه الخَصلة يمكن أن تكون مرافقة بالبهجة الأكثر ابتساما. إنها الخصلة نفسها التي يتحلى بها النجار حينما يكون إزاء قطعة الخشب، فيلمسها ويقيسها ولا يستخف بها ليستجمع جميع فضائله لمعالجتها.

يا غيومي، لقد قرأت سابقا قصة تحتفي بمغامراتك، وكنت دائما أريد تصحيح تلك الصورة الخائنة. صوّرتك القصة وأنت تلفظ المُزح على طريقة "غافروش"، كما لو أن الشجاعة تتمثل في السقوط إلى تلك السخريات اللائقة بتلاميذ المتوسط، وذلك في قلب أسوإ الأخطار وفي لحظات الموت. لا نعرفك على هذه الصورة يا غيومي. إنك لا تشعر بحاجة إلى تقزيم منافسيك قبل مواجهتهم. مقابل زوبعة سيئة، يقول: "هذه زوبعة سيئة." تقبلها وتقيس نفسك بها.

يا غيومي، سأسجل هنا شهادة ذكرياتي معك.

لقد اختفيتَ منذ خمسين ساعة ذات شتاء خلال عبور جبال الأند. وكنت أنا راجع للتوّ من عمق منطقة "الباتاغوني" والتحقتُ بالطيار ديلاي في مَنْدوزا. لمدّة خمسة أيام بكاملها، حلقنا أنا وهو فوق هذا الركام من الجبال باحثين عنك، دون أن نكتشف شيئا. طائرتان غير كافيتين. بدا لنا أن مائة طائرة، تحلق لمدة مائة سنة، سوف لن تنتهي من اكتشاف هذه الكتلة الضخمة التي ترتفع قممها إلى غاية سبعة آلاف مترا. انتابنا اليأس من إمكانية العثور عليك. رفض المهربون من التوغل بداخل حصون تلك الجبال، ومعهم أولئك المجرمين الذين لم يتردّدوا من ارتكاب الحماقات مقابل خمسة فرنكا، وكذا قوافل الإنقاذ. كانوا يقولون: "سنعرض حياتنا للخطر. إن جبال الأند لا ترحم الداخلين إليها في فصل الشتاء". حينما هبطنا أنا وديلاي في صانتياغو، نصحنا الضباط الشيليون بوقف استكشافاتنا. "إنه فصل الشتاء. حتى وإن نجا رفيقكم من سقوط طائرته، فلم ينجو من الليل. الليل هناك في المرتفعات، حينما تمر على رجل تحوّله إلى جليد." حينما تسللت من جديد بين الجدران والأعمدة العملاقة، بدا لي أنني لم أكن أبحث عنك بقدر ما كنت ساهرا على جثتك، في صمت تلك الكاتدرائية الثلجية.

أخيرا، خلال اليوم السابع، وفيما كنت أتناول الغداء في مطعم بمندوزا، دفع رجل الباب وصاح، آه، ما أروع لخبر:

- غيومي... حيّ يُرزَق...

فتعانق جميع الغرباء الذين كانوا هناك.

بعد عشر دقائق، كنت قد حلّقت في السماء، برفقة ميكانيكيَين، لوفَبْر وآبْري.

بعد حوالي أربعين دقيقة، هبطت طول طريق بعد أن تعرفت، لا أعرف بأية علامة، السيارة التي تقلك ،لا أعرف إلى أين، بقرب سان غافاييل. كان اللقاء جميلا، بكينا جميعا ونحن نضمك بقوة إلى صدورنا، حيّا، عائدا من الموت المؤكّد، بطلا لمعجزتك الخاصة. حينذاك، تلفظتَ بجملتك الأولى المعقولة، كبرياء إنساني رائع: "إن ما فعلتُه، أقسم لك، لم تكن ستفعله أية بهيمة أبدا."

حكيت لنا تفاصيل الحادثة فيما بعد.

عاصفة دفقت سُمك خمسة أمتار من الثلج على الجهة الشيلية لجبال الأند، في ظرف ثمانية وأربعين ساعة فقط، وأغلقت جميع الفضاءات. عاد طيارو الشركة الأمريكية أدراجهم. مع أنك حلّقت للبحث عن ثغرة في السماء. لقد اكتشفت الفخّ الذي أوقعك في حباله بعيد في الجهة الجنوبية، والآن، على علو ستة آلاف وخمس مائة مترا، وأنت تهيمن على الغيوم التي لا يزيد علوها عن ستة آلاف، فلا يظهر من الجبال إلا رؤوس القمم الصخرية، فاتجهت صوبا نحو الأرجنتين.

إن التيارات النازلة تمنح أحيانا للطيارين إحساسا غريبا بالانزعاج. يدور المحرك على أحسن ما يرام، ولكننا نزيد هبوطا. نهيج كي ننقذ علونا، فتفقد الطائرة من سرعتها وتضعف قوتها: نزيد هبوطا دوما. نخفف من الضغط على المقود متصورين أننا انحرفنا كثيرا على اليمين أو على اليسار كي نتكئ على القمة الملائمة، تلك التي تستقبل الرياح كواسطة، ولكننا نزيد هبوطا. يبدو لنا أنّ السماء هي التي تنزل نحو الأرض. فينتابنا إحساسٌ أننا وقعنا في حادثة كونية. فلا يوجد ملاذ يأوينا. نجرّب نصف دائرة للعودة إلى الوراء، الالتحاق بالمناطق التي يكون فيها الهواء ثقيلا قويا يستطيع حملنا مثل عمود صلب. ولكن لا وجود لعمود. كل شيء يتفكّك وننزلق في تفتيت كوني نحو الغيمة التي تتصاعد برخو، ترتفع إلى غاية طائرتك وتبتلعك.

قلت لنا: "كدتُ أن أقع في الفخّ، ولكنني لم أكن مقتنعا بعد. نصادف تيارات هوائية هابطة فوق الغيوم والتي تبدو مستقرة، لسبب بسيط هو أنها في نفس العلو تتجدّد باستمرار. يبدو كل شيء غريبا في أعلى الجبال..."

ويا لها من غيوم؟

" في تلك الوضعية، تركت روافع سير الطائرة والتصقت بالمقعد كي لا أُلفَظ خارج المقصورة. كانت الهزات عنيفة إلى حدّ أن الأحزمة أوجعني وخشيت أن تتمزق. كما حرمني الجليد من أي أفق استعمالي، فتدحرجت مثل قبعة تحت تأثير الرياح من ستة آلاف إلى ثلاثة آلاف وخمس مائة.

" عند الثلاثة آلاف وخمس مائة رأيت كتلة سوداء أفقية سمحت لي تسوية الطائرة. كانت تلك الكتلة بحيرة تعرفت عليها: إنها بحيرة ديامانت. كنت أعرف أنها تقع في عمق قِمْع يرتفع أحد جدرانه، البركان مايْبو إلى غاية ستة آلاف وخمس مائة. رغم أنني تحررت من الغيوم، إلا أن زوابع ثلجية ضخمة كانت تحجب لي الرؤية ولا يمكن الهبوط على البحيرة دون الارتطام بأحد جدران القمع. فبقيت أحلق فوق البحيرة في دوائر صغيرة إلى أن جفّ خزان البنزين. فبعد ساعتين من التحليق، هبطت مضطرا. حينما خرجت من الطائرة، أسقطتني العاصفة أرضا. وقفت على قدمي، فأسقطتني ثانية. اضطررت إلى الاختفاء تحت هيكل الطائرة وحفر مخبئ في الثلج. لففت نفسي بأكياس بريدية وانتظرت مدّة ثمانية وأربعين ساعة.

"بعد ذلك هدأت العاصفة، فبدأت المشي. مشيت خمسة أيام وأربع ليالي.."

ماذا بقي منك يا غيومي؟ وجدناك معافا، ولكنك مفحما ومتصلبا ومتقلصا كما عجوز. في ذلك المساء، أرجعتك عبر الطائرة إلى مندوزا حيث لفك فراش دافئ كما العطر الفوّاح. ولكنه لم يشفيك. كنت مرهقا بذلك الجسم المعذّب الذي يقلبه يمينا وشمالا دون أن تتمكن من إسكانه في النوم. لم ينسَ جسمك الصخور والثلوج. لقد وشموك إلى الأبد. كنت أراقب وجهك الأسود، المنتفخ، أشبه بفاكهة ذابلة تلقت ضربات. كان منظرك بشعا وبئيسا وأنت تفقد استخدام أجمل أدوات عملك: بقيت يداك متجمدتين، وحينما تتنفس تجلس على حافة سريرك، برجليك المتجمدتين أيضا واللتين تتدليان مثل ثقلين ميتين. لم تنهي سفرك بعد، ولا ولت تلهث، وحينما تتقلب على الوسادة بحثا عن الراحة، ينتابك شلال من الصور لا تستطيع مقاومتها، شلال ينتظر قلقا في الكواليس، ليبدأ فجأة في الزحف إلى مخك. وتتتالى بسرعة وعنف. وتواصل عشرين مرة معركتك ضد الأعداء الذين تمّ إحياؤهم من رمادهم.

كنت أملأ قدحك من تيزانة ساخنة:

- إشرَب يا شيخ...

- إنّ ما أدهشني... أتعرف...

كنت تعيش ثانية مغامرتك العجيبة، مثل ملاكم منتصر برغم تلقيه الضربات القوية. وكنت تتحرّر منها إربا إربا. وكنت أراك خلال قصتك الليلة تلك ماشيا، بلا فأس ولا حبال ولا مؤونة، تتسلق أعناقا بطول أربعة آلاف وخمس مائة مترا، تتقدّم على الواجهات العمودية بأقدام ورُكب وأيدٍ مُدماة، تحت أربعين درجة تحت الصفر. وكنت تتقدّم بعناد النمل، وأنت تُفرغ شيئا فشيئا من دمك، من قوتك، من عقلك، تعود قليلا إلى الوراء لتستدير الحاجز، تنهض بعد السقوط، أو تعود من المنحدرات التي لا تنفتح إلا على الهاويات، ولا تمنح لنفسك أدنى راحة، لأنك سوف لن تنهض من سرير الثلج إن تمددت فوقه.

بالفعل، فحينما تتدحرج على الثلج، كان عليك أن تقف بسرعة كي لا تمسخ إلى حجرة. يُجمّدك البرد ثانية بعد أخرى، وإذا حدث أن استرحت دقيقة واحدة زائدة بعد السقوط، وتريد بعد ذلك الوقوف فسوف تجد عضلاتك قد ماتت ولن تعينك في شيء.

كنت تقاوم الإغراءات. تقول: "في الثلج، نفقد كل غريزة المقاومة. بعد يوم أو يومين أو ثلاثة أيام من المشي، تصبح الرغبة الوحيدة لديك هي النوم. كنت أتمناه من أعماق قلبي. أفكّر مع نفسي: زوجتي، إن كانت تعتقد أنني على قيد الحياة، يعني أنني قادر على المشي. رفاقي يعتقدون أنني أمشي. إنهم يثقون في قدراتي. أنا نذل إن تخليت عن المشي."

وكنت تمشي، ولا تنسي أن تشقق حذاءك بموسك الصغير كل يوم أكثر كي تستطيع قدماك اللتان تنتفخان أن تمكثا بداخله.

لقد بحت لي بهذا السرّ الغريب:

" ابتداء من اليوم الثاني، كان شغلي الشاغل أن أمتنع من التفكير. كنت أتألم كثيرا، وكان وضعي ميئوسا منه. كي أجد الشجاعة لمواصلة المشي، فلا ينبغي التفكير في حالتي. للأسف الشديد، لم أكن أتحكم جيدا في مُخي. كان يشتغل مثل محرّك. ومع ذلك، كنت أختار له صوره. أحفزه على فيلم، على كتاب. وتتدحرج صور الفيلم أو الكتاب بسرعة جنونية. بعد قليل تعيدني إلى وضعيتي الحاضرة. حتما. ثمّ أضعه على سكّة ذكريات أخرى..."

ومع ذلك، حدث لك مرة أن سقطت على بطنك فوق الثلج ورفضت النهوض. كنت أشبه بالملاكم الساقط الذي أُفرغ من جميع المحفزات ويستمع إلى الحكم يعد الثواني، الواحدة بعد الأخرى في عالم غريب، إلى غاية العاشرة الفاصلة.

"قمت بكل ما استطعت أن أفعله ولا أمل عندي للنجاة، فلماذا أواصل هذه العذاب؟" كان يكفيك أن تغمض عينيك كي تجد السكينة في هذا العالم. لتمحو من عالمك الصخور والجليد والثلوج. بمجرد إغماض جفنيك المعجزتين، يتبخر الجسد وعذاباته وعضلاته المجروحة والجليد الحارق وثقل هذه لحياة التي تجرها خلفك وأنت تندفع كالثور، أثقل من دبابة. بدءا بدأت تذوق هذا البرد الذي سيتحول إلى سمّ، أشبه بمخدر المورفين الذي يملأك الآن غبطة. تختفي حياتك حول قلبك. يتكوّر بعمقك شيء لطيف وثمين. شيئا فشيئا، يغادر وعيك المناطق البعيدة لهذا الجسد، الشبيه بالبهيمة الممتلئة بالأوجاع، ليشارك لامبالاة المرمر.

خفتت وساوسك. لم تعد نداءاتنا تصلك، أو بالأحرى أصبحت تتحوّل إلى نداءات حالمة. وكنت تجيب سعيدا بمشي حالم، بقفزات طويلة بسيطة كانت تفتح لك بلا جهد ملذات السهول. وكم كنت تنزلق بسهولة في عالمك الجديد الذي أضحى لطيفا جدا بالنسبة إليك. هكذا غيوم، قرّرت كالبخيل أن ترفض لنا عودتك.

فجأة تدفقت وساوسك من عمق خلف وعيك. اختلطت تفاصيل صغيرة مع الحلم." أفكّر في زوجتي. سيعفيها تأميني من البؤس. نعم، ولكن التأمين..."

في حالة اختفاء، سيؤخَّر الموت الشرعي بأربع سنوات. بدا لك هذا التفصيل ساطعا مزيحا الصور الأخرى. كنت ممددا على بطنك على منحدر ثلجي. مع قدوم الصيف سينحدر جسمك مع هذا الوحل باتجاه إحدى الحفر الألف التي تحتويها جبال الأند. كنت تعرف ذلك. وكنت تعرف أيضا أن صخرة تبرز على بعد خمسين مترا من مكانك: "فكّرت: إذا نهضت، قد أستطيع الوصول إليه. وإذا وضعت جسمي مع الصخرة، سيُعثر عليه في الصيف القادم."

عندما وقفت، مشيت ليلتين وثلاثة أيام.

ولكنك لم تفكر أن بإمكانك الذهاب بعيدا:

"توقعت النهاية اعتمادا على علامات كثيرة. ها هي إحداها. كنت مجبرا بالتوقف كل ساعتين تقريبا كي أشقق حذائي قليلا، دلك قدميّ اللتين تنتفخان بالثلج، أو لأترك قلبي يستريح قليلا. زيادة إلى أنني بدأت أفقد الذاكرة في الأيام الأخيرة. حينما يعود إلي النور، أكون قد ذهبت بعيدا: في كل مرة، كنت أنسى شيئا. مرة نسيت قفازا، وكان الأمر خطيرا مع ذلك البرد. كنت قد وضعته بقربي عند الاستراحة، ثمّ استأنفت مشيي دون التقاطه. ثمّ نسيت ساعتي. وبعد ذلك الموسى الصغيرة. وبعدها بوصلتي. عند كل توقف، كنت أزيد فقرا...

"إن ما ينقذ، هو أن نقوم بخطوة إضافية. خطوة واحدة إضافية. إنها الخطوة نفسها التي نعيدها دائما..."

" إن ما فعلتُه، أقسم لك، لم تكن ستفعله أية بهيمة أبدا". عادت إلى ذاكرتي هذه الجملة، وهي من أنبل الجمل التي أعرفها، هذه الجملة التي تحدّد موقع الإنسان الحقيقي، تشرّفه، وتعيد الأماكن إلى حقيقتها. أخيرا عرفت النوم، لأن وعيك تخدّر، ولكنه سيولد من جديد بعد استيقاظ جسدك المفكك، المدعوك، المحروق، ومن جديد سيسيطر عليه. حينذاك، يصبح الجسد عبارة عن آلة جيدة، عبارة عن خادم مطيع. إنك تحسن يا غيومي التعبير عن كبرياء هذه الآلة الجيدة:

" تصوّر ماذا سيحدث لجسمك بعد ثلاثة أيام من المشي بلا أكل... كاد قلبي يخدعني... تعطّل قلبي وأنا أسير طول منحدر عمودي، أتقدّم رويدا رويدا، أحفر ثقوبا أتشبث بها. يتردّد، ينطلق. يخفق بالعوج. أحسّ أنه لو يتردّد لحظة أخرى، سأنهار. لا أتحرك وأسترق السمع إلى أعماقي. أبدا، أتسمع؟ أبدا لم ألتصق بمثل هذا القرب بمحركي في الطائرة، مثلما كنت ملتصقا في تلك الدقائق معلقا بقلبي. كنت أقول له: هيا، جهد طفيف فقط... حاول أن تخفق بسرعة أكبر... ولكنه كان قلبا من طينة جيدة. يترّدد ثم ينطلق دوما... لوْ تعرف كم كنت معتزا بهذا القلب...

في غرفة مندوزا حيث كنت أسهر على راحتك، نمت أخيرا بنوم متقطع. كنت أفكّر: إذا حدّثناه عن شجاعته، سيهز غيومي كتفيه. ولكننا نَخونه إن نحن نوهنا بتواضعه. إنه يقع أعلى بكثير من هذه الخصلة الرديئة. إن كان تهز كتفيه، فبسبب الحكمة. يعرف أن الإنسان إذا عصفت به النوائب فلا يشعر بالخوف. وحده المجهول يرعب الإنسان. ولكن المجهول لا يصبح كذلك عند لحظة المواجهة. خاصة إذا راقبناه بتلك الرصانة الصافية. قبل كل شيء، إن شجاعة غيومي هي نتيجة استقامته.

إن خصاله الحقيقة ليست هنا. تكمن عظمته في إحساسه بالمسؤولية. مسئول عن نفسه، عن البريد، عن الرفاق الذين يأملون. يمسك بيديه أفراحهم وأقراحهم. مسؤول عن الجديد الذي يبنى هناك، عند الأحياء، وعليه أن يشاركهم في ذلك البناء. مسؤول قليلا عن مصير الإنسان، وفق ما يتطلبه عمله.

إنه ينتمي إلى تلك الكائنات العظيمة التي تقبل أن تغطي بأوراقها مساحات شاسعة. إن تكون رجلا، يعني أساسا أن تكون مسئولا. أن تعرف العار أمام بؤس لم تتسبب في وقوعه أنت. أن تكون فخورا بانتصار حققه الرفاق. أن تحس بأنك تساهم في بناء العالم عند وضعك حجرة واحدة.

هناك من يريد وضْع مثل هؤلاء الرجال في سلة واحدة مع مصارعي الثيران أو لاعبي القمار. ننوّه بازدرائهم للموت. ولكنني أسْخر من ازدراء الموت. إذا لم يأخذ جذوره من مسئولية متفق عليها، فليس إلا علامة فقر أو مبالغة شاب. عرفت منتحرا شابا. لا أعرف بالضبط تفاصيل فشل تجربة حب دفعته إلى إطلاق رصاصة على قلبه. لا أعرف إلى أي إغراء أدبي استجاب حينما لفّ يديه بقفازات بيضاء، ولكنني أتذكر أنني أحسست أمام هذا المشهد التظاهري بشعور بؤس وليس بشعور نبل. هكذا، لم يكن شيء وراء هذا الوجه اللطيف، تحت جمجمة هذا الرجل، لا شيء، غير صورة فتاة صغيرة بليدة مثل آلاف الأخريات.

مقابل هذا المصير الضامر، أتذكّر موتا حقيقيا لرجل كان يشتغل بستانيا. قال لي:

"أتعرف بأنني أعرق أحيانا عندما أحرث الأرض. تؤلمني ساقيّ بسبب داء المفاصل الذي ينخر عظامي، وكنت أغضب ضد هذه العبودية. أما اليوم، فأريد حرث الأرض وقلبها. ما أجمل خدمة الأرض. يشعر المرء بحرية كبيرة وهو يحرث. ثمّ من سيقلم أشجاري؟" ترك أرض غير محروثة. ترك كوكبا غير محروث. كانت تربطه علاقة حبّ بجميع الراضي وبجميع أشجار الأرض. هذا هو السخي الكريم السيّد العظيم. أنه هو الشبيه بغيومي، الرجل الشجاع حينما كان يصارع باسم خلقه ضد الموت.

**3**

**الطائرة**

ماذا يهم يا غيومي إن كنت تقضي ليالي وأيام عملك في مراقبة المضاغط وحفظ توازن الطائرة وفحص سلامة المحركات وسند كتفك ضد خمسة عشر أطنان من الحديد: في نهاية المطاف، إن المشاكل التي تُطرح عليك هي مشاكل رجال، وهكذا تنضم كلية إلى نبل الفلاح. إنك تُحسن تذوّق قدوم الفجر مثل الشاعر تماما. غالبا ما كنت تتمنى، من عمق هاوية لياليك الصعبة، بروز تلك الباقة الشاحبة، ذلك النور الساطع الصام، على شرق الأراضي السوداء. أحيانا، يذوب ذلك الينبوع الخارق أمامك، ببطء، فيشفيك حينما اعتقدت أنك ستموت.

إن استعمال آلة عالمة لم يجعل منك تقنيا جافا. بدا لي أن أولئك الذين يتخوفون من تطوراتنا التقنية يخلطون بين الهدف والوسيلة. أكيد أن الذي يقاوم فقط من أجل الحصول على الخيرات المادية وحدها سوف لن يجني شيئا يستحق العيش. ولكن الآلة ليست هدفا في حدّ ذاتها. الطائرة ليست هدفا: إنها أداة. أداة مثل المحراث تماما.

إذا تصورنا أن الآلة تفسد الإنسان فلأننا لا نملك الوقت الكافي للحكم على التغيرات السريعة التي حدثت لنا. ماذا تعني المائة سنة من تاريخ الآلة بالمقارنة مع ألفي سنة من تاريخ الإنسان؟ لا نكاد نستقر على منظر المتفجرات والمراكز الكهربائية. لا نكاد نسكن في هذا البيت الجديد الذي لم ننته من بنائه بعد. كل شيء تغير بسرعة حولنا: العلاقات الإنسانية، ظروف العمل، العادات. اهتزّت سيكولوجيتنا هي الأخرى في أسسها الأكثر حميمية. إن مفاهيم الفراق والغياب والمسافة والعودة لا تحتوي على الوقائع السابقة نفسها حتى وإن لم تتغير الكلمات. إننا نستخدم لغة صقلها عالم الأمس لنمسك بواقع عالم اليوم. يبدو لنا أن حياة الماضي تستجيب أفضل لطبيعتنا بسبب أنها تستجيب أفضل للغتنا.

إن كل تطوّر علمي يحدث إلا ويبعدنا قليلا عن العادات التي لم نكتسبها إلا منذ فترة قصيرة فقط. لسنا إلا مهاجرين لم نؤسّس وطننا الحقيقي بعد.

إننا جميعا برابرة شباب لا زلنا نندهش أمام ألعابنا الجديدة. لا تملك سباقات طائراتنا معنى آخر. هذا يرتفع فوق الجميع، وذاك يجري بسرعة أكبر. وننسى لماذا نتسابق. إن السباق يتغلب مرحليا على موضوعه. ويسري الشيء نفسه على الجميع. بالنسبة للمستعمر الذي يؤسّس إمبراطورية، فإن معنى الحياة هو الاستعمار. إن العسكري يزدري المعمر. ولكن أليس هدف الغزو إقامة هذا المعمر؟ هكذا استخدمنا الإنسان في إقامة السكك الحديدية، وبناء المصانع، وحفر آبار البترول في خضم حماس تطورنا العلمي. ونسينا شيئا ما أننا نشيّد هذه المنجزات لخدمة الإنسان. كانت أخلاقنا خلال مدّة الغزو أخلاق عساكر. ولكن الآن حان الوقت للتعمير. يجب علينا إحياء هذا البيت الجديد الذي ليس لديه وجه بعد. إن حقيقة البعض هي البناء، وحقيقة البعض الآخر هي السكن.

سيكون بيتنا بلا شك وشيئا فشيئا أكثر إنسانية. الآلة نفسها كلما تطوّرت كلّما انمحت خلف وظيفتها. يبدو أن كل جهود الإنسان الصناعية، كل حساباته، كل الليالي التي قضاها ساهرا لإنجاز تلك الرسوم، ليس لها من هدف بارز إلا التبسيط، كما لو اقتضت تجربة أجيال كثيرة كي نُخرج إلى الوضوح منحنى عمود أو غاطس أو بدن طائرة، إلى أن نمنح له صفاء منحنى نهد أو كتف. يبدو أن عمل المهندسين والرسامين ومحاسبي مكاتب الدراسات ليس في الظاهر إلا صقل ومحو وتخفيف هذا الموّصل، إحداث توازن هذا الجناح، إلى أن يصبح غير مرئي، إلى أن لا يصبح الجناح معلقا إلى بدن الطائرة، وإنما شكلا واحدا متفتحا، ليكون أخيرا، وبعد انفصاله عن غطائه، مجموعة عفوية، مقيّدة بشكل سري، بنوعية أشبه بنوعية قصيدة شعرية. يبدو أن الوصول إلى الإتقان يكون عندما لا نجد شيئا ننزعه وليس عندما لا نجد شيئا نضيفه. إن الآلة ستختفي في ذروة تطورها.

إن الإتقان في الاختراع سيتجاور مع غياب الاختراع. كذلك يحدث مع الأداة، ستنمحي فيها شيئا فشيئا كل تقنية ظاهرة، وتقدّم لنا مثل شيء طبيعي مثل حصاة ملساء صقلها البحر. يكون من الرائع جدا أن تنمحي الآلة شيئا فشيئا أثناء استعمالها.

سابقا كنا في اتصال مع مصنع معقّد. ولكننا اليوم نسينا أن المحرّك يشتغل. يستجيب أخيرا لوظيفته ألا وهي الاشتغال مثل القلب الخافق الذي لا يجلب اهتمامنا بتاتا كما لو أنه غير موجود. إن اشتغال الآلة أيضا سوف لن يجلب اهتمامنا. وأبعد من الآلة، وعبرها، سنعيد اكتشاف الطبيعة القديمة، طبيعة البستاني والملاح والشاعر.

عند تحليقه، يقيم الطيار اتصالا مع الماء ومع الهواء. حينما تنطلق المحركات، حينما تحرث الآلة عباب البحر في هدير فظ، يصفر الهيكل مثل الصَنْجة، ويمكن للإنسان متابعة هذا العمل باهتزاز وركيه. يشعر بالطائرة المائية، ثانية بعد أخرى، كلما زادت السرعة، كأنه يمتلئ سلطة. بداخل هيكل الخمسة عشر طنا من المادة، يشعر بهذا الاستعداد والرشد اللذين يسمحان ببدء الطيران. يضغط الطيار بيديه على مقبض القيادة، وشيئا فشيئا، يتلقى هذه القوة كهبة ربانية ويشعر بها تتسرَّب إلى داخل راحتي يديه. تتحوّل روافع القيادة الحديدية إلى رسل تمد له قوته مع تسرب هذه الهبة الربانية. وبعدما تنضج هذه القوة، يفصل الطيار بحركة خفيفة، أشبه بتلك التي يجني بواسطتها ثمرة يانعة، الطائرة من المياه ويستقر بها في الهواء.

**4**

**الطائرة والكوكب**

**1**

ربّما كانت الطائرة آلة، ولكنها أداة تحليل رائعة. لقد سحت لنا هذه الأداة باكتشاف الوجه الحقيقي للأرض. خلال قرون، خدعتنا الطرق. كنا نشبه تلك الملكة التي أرادت زيارة رعاياها ومعرفة إن كانوا يعيشون سعداء في مملكتها. لخداعها قام أعضاء حاشيتها المتملقون بتنصيب بعض الديكورات المبتهجة في طريقها، واستأجروا بعض الممثلين للرقص وإطلاق صيحات الترحيب. هكذا، وخارج الطريق الضيقة المرسومة، لم تر الملكة شيئا من مملكتها، ولم تعرف أن أولئك الذين يموتون جوعا في البوادي البعيدة يلعنونها.

هكذا كنا نمشي طوال الطرق الملتوية. تتجنب الأراضي الجدباء والصخور والرمال، تنسجم مع حاجيات الإنسان وتنتقل من ينبوع ماء إلى آخر. تقود الفلاحين من خزانات مُؤنهم إلى الأراضي الخصبة، تستقبل عند عتبة الإسطبلات الماشية الناعسة لتنقلها مع الفجر إلى المراعي. تلحق هذه القرية بتك، شابا من هذه خطب فتاتا من تلك. وحتى في حالة قطع طريق لصحراء شاسعة، فهي تقوم بعشرين التواء لتتمتّع بالواحات المريحة.

هكذا خدعنا بهذه الانعطافات وكذا بتلك الأكاذيب اللطيفة، فسلكنا خلال أسفارنا أراض كثيرة مسقية، وبساتين ومروج، فزيننا لفترة طويلة صورة سجننا. تصورنا هذا الكوكب رطبا وناعما.

ولكن نظرتنا أصبحت حادة وعشنا تطورا قاسيا. تعلمنا الخط المستقيم بفضل الطائرة. بمجرد تحليقنا في الفضاء نطلّق تلك الطرقات التي تنعطف باتجاه المساق والإسطبلات، أو تتثعبن من مدينة على أخرى. لقد تخلصنا من العبوديات المحبوبة ومن حاجتنا إلى الينابيع، فنتوجه صوبا نحو أهدافنا البعيدة. حينئذ فقط، ومن أعلى مساراتنا المستقيمة، نكتشف التضاريس الأساسية، وحجم الصخور والرمال والملح، حيث تتجرأ الحياة أحيانا بحط رحالها عبر ازدهار قليل من الطحلب في عمق آثار خربة.

ها قد تحولنا إذا إلى فيزيائيين وبيولوجيين نتفحص هذه الحضارات التي تزيّن أعماق السهول، وأحيانا تتفتح في معجزة بداخل حدائق حيث يساعدها المناخ. ها نحن نطلق أحكاما على الإنسان منسلّم كوني، نلاحظه عبر كواتنا، كما نفعل عبر أدوات الدراسة. ها نحن نعيد قراءة تاريخنا.

**2**

إن الطيار الذي يتجه نحو مضيق مرجلان يحلق قليلا جنوب وادي غاليغوص، مصب قديم للحمم البركانية. تتكدّس هذه الأنقاض على السهل في سمك عشرين مترا. ثم يصادف مصبا آخر، ثمّ ثالثا، وبعد ذلك تحمل كل حدبة في الأرض، كل هضبة تتجاوز المائتي مترا فوهة بركان في جانبها. طبعا ليس دائما بكبرياء "الفيسوف"، البركان الإيطالي، المتناثرة طول السهل مثل فوهات القذّافات.

ولكن اليوم خيّم الهدوء. نتلقاه بدهشة في هذا المنظر المهمل، حيث تتجاوب آلاف البراكين بواسطة أراغِنها التحتأرضية الكبيرة وهي تقذف نيرانها. حينئذ نحلق فوق أرض صماء، مزينة بجليد أسود.

ثمّ بعيدا، ترتدي براكين أقدم منها حشائش مذهبة. أحيانا، تنبت شجرة في حفرها كزهرة في إناء قديم. تحت نور بضوء الغسق، يتزين السهل مثل حديقة، يتمدن بالحشائش القصيرة القامة ولا يكاد يتبجّح إلا قليلا حول حناجره العملاقة. يركض أرنب، ينطلق طائر، تستحوذ الحياة على كوكب جديد حيث ترسّبت أخيرا عجينة الأرض الجيدة على النجم.

أخيرا، قبل الوصول إلى "بوينطا أريناس"، تمتلئ فوهات البراكين الأخيرة. اعتنقت مرجة خضراء منحنيات البراكين: لم تعد الآن إلا نعومة. خيط كل شق بكتان لين. الأرض ملساء، المنحدرات ضعيفة، وننسى أصولها. تمحو هذه الأرضية الخضراء العلامة الداكنة من جوانب التلال. وها هي أبعد مدن العالم باتجاه الجنوب، تمنح لها الصدفة قليلا من الوحل، بين الحمم البركانية الأصلية وجليد القطب الجنوبي. كم نحسّ بمعجزة الإنسان بقرب تلك المصبات السوداء. يا لغرابة اللقاء. لا نعرف كيف، لا نعرف لماذا يزور هذا المسافر العابر تلك الحدائق المعدّة، الساكنة لوقت قصير، فترة جيولوجية، يوم من بين الأيام المباركة.

هبطت بطائرتي في عذوبة ذات مساء. بوينط أريناس... أسندت ظهري ضد نافورة وتأملت مرور فتيات. على بعد خُطوتين من رشاقتهن، أحسّ بالسرّ الإنساني أفضل. في عالم تلتحق فيه الحياة جيدا بالحياة، وتختلط فيه الأزهار بالأزهار في مجرى الريح نفسها، حيث تعرف العصافير جميع العصافير، وحدهم الرجال يبنون عزلتهم.

ما هو الفضاء المشترك الذي يخصّصه لهم بعدهم الروحي؟ يبعده عني حلم فتاة، كيف ألتحق به؟ ماذا يجب أن نعرف عن فتاة تعود إلى بيتها بخطى وئيدة، العيون خافضة وتبتسم لنفسها، وهي مليئة بالاستكشافات والأكاذيب المحبوبة؟ استطاعت أن تبني مملكة بأفكار وأصوات وصمت عاشق، عندئذ لا يوجد بالنسبة إليها خارجه إلا البرابرة. أحسّ بها مغلقة في سرّها، في عاداتها، في أصداء ذاكرتها الغناء، أفضل مما أحس بها في كوكب آخر. وُلدتْ بالأمس من البراكين ومن الأراضي الخضراء ومن ملوحة البحار، وها هي نصف إلهة.

بوينطا أريناس... أسندت ظهري ضد نافورة. تأتي العجائز لجلب الماء. لم أعرف من مأساتهن إلا حركة الخادمات هذه. يبكي طفل في صمت، رقبته على الجدار. سوف لن يبقَ من هذه الصورة في ذاكرتي إلا طفل جميل لا يستطيع مواساته أحد. أنا غريب. لا أعرف شيئا. لا أدخل عوالمهم.

بداخل أي ديكور فقير تمثّل هذه اللعبة الشاسعة من الأحقاد والصداقات والأفراح البشرية. من أين يستقي الإنسان طعم هذا لخلود، ويغامر مثلما يفعل بداخل حمم بركان ساخن، تهدّده الثلوج؟ ليست حضاراتهم إلا زخارف مذهبة هشة: يمحوها بركان، بحر جديد، رياح رملية.

يَبدو أن هذه المدينة ترتكز على أرضية حقيقية نخالها غنية في العمق مثل سهول بوص في ضواحي باريس. ننْسى أن الحياة بذخ، هنا مثلما هي في مكان آخر، ولا توجد أرض أعمق تحت أقدام الإنسان. ولكنني أعرف على بعد عشر كيلومترا من بوينطا أريناس بحيرة تؤكد لنا ذلك. تُحيط البحيرة أشجار صغيرة ومنازل واطئة، خاشعة كما بركة ماء في ساحة مزرعة، ورغم ذلك تعيش المدّ والجزر بشكل غامض. تواصل البحيرة ليل نهار تنفسها البطيء بين وقائع عديدة هادئة، ذلك القصب وأولئك الأطفال الذين يلعبون، تخضع لقوانين أخرى. تحت سطحها الموحّد، تحت الجليد الساكن، تحت الزورق الوحيد الخرب، تقوم طاقة القمر بمفعولها. تشتغل تيارات بحرية في أعماق تلك الكتلة السوداء. يتواصل هضم غريب هنا حول هذا المكان وإلى غاية مَضيق مرجلان، تحت طبقة العشب والأزهار الخفيفة. إن هذه البحيرة، بعرض مائة متر، وعلى عتبة مدينة يشعر أهلها أنهم مستقرون في ديارهم وعلى أرض البشر، تنبض بخفقان قلب البحر.

**3**

نسكن كوكبا تائها. من حين لآخر، وبفضل الطائرة، يرينا أصله: تكشف بحيرة في علاقة مع القمر عن قرابة خفية – ولكنني عرفت علامات أخرى.

من بعيد لبعيد نحلق فوق ساحل الصحراء، بين رأس جوبي سسنيروس، هضاب على شكل صنوبرة يتراوح عرضها ما بين بضع مئات الخطوات إلى حوالي ثلاثين كيلومترا. أما علوما فإن يكاد يكون واحدا ولا يتجاوز ثلاثمائة مترا. زيادة إلى هذا التساوي في المستوى، تظهر ألوانا متشابهة، أرضية متشابهة وكذا تضاريس متشابهة لجوانبها البحرية. إنها أشبه بأعمدة معبد تبرز وحدها وسط الرمال، وتظهر أطلال طاولة منهارة، هكذا تشهد هذه الأعمدة المعزولة على وجود هضبة تكون قد وحّدتها سابقا.

خلال السنوات الأولى لانطلاق خط الدار البيضاء-داكار حيث كانت الآلات هشة، كان تكرار التعطل وعمليات الإنقاذ والتحريات يجبرنا على الهبوط الاضطراري. كم كانت الرمال خادعة: نخالها صلبة ولكننا نغوص بداخلها. أما الملاحات القديمة التي يبدو مظهرها بصلب الإسفلت وتحدث ملامسة عقب الحذاء لمساحتها صريرا مصفرا، فإنها تنهار أحيانا تحت ثقل العجلات. حينئذ، تسقط قشرة الملح بداخل عفونة سبخة سوداء. لذلك كنا نختار المساحات الملساء لهذه الهضاب حينما تسمح بذلك الظروف: إنها لا تخفي أبدا فِخاخا.

يعود هذا الضمان إلى وجود رمال مقاومة بحبها الثقيل، وركام ضخم من المحار الصغيرة جدا. تكون سليمة على سطح الهضبة، نكتشفها مفتتة ومتراكمة كلما انحدرنا طول النتوء. عند أسفل الكتلة الصخرية، في الرسوب القديمة، تشكّل كلسا خالصا.

حدث أن هبطت على إحدى هذه الملاجئ في عهد اختطاف المنشقين لرفيقين لنا، غين وسير، كي أحطّ مرشدا عربيا، بحثت معه، قبل أن أفارقه، إن كان هناك طريقا يستطيع أن يسلكه للخروج من الهضبة. ولكن شرفتنا كانت تنفتح في كل الاتجاهات على جرف ينحدر عموديا باتجاه الهاوية بتعرجات عصية الاجتياز. كان الهروب مستحيلا.

ومع ذلك تأخرت في هذا المكان قبل أن أحلق للبحث عن ميدان هبوط آخر. كنت أشعر بسرور ربما كان صبيانيا لأنني وضعت قدميّ فوق إقليم لم تدنسه أقدام أخرى، سواء كانت بشرية أو حيوانية. لا يمكن لأي عربي أن ينقض على هذا القلعة الحصينة. ولم يحدث لأي أوروبي أن استكشف هذا الإقليم. كنت أجوب رملا بكرا خالصا. كنت أول من يلمس غبار هذه المحار الشبيهة بالذهب الخالص، وينقلها من راحة يد إلى أخرى. أول من يعكر صفو هذا الصمت. على هذا الشريط الشبيه بالجليد الذي لم يعرف العشب أبد الدهر، كنت مثل بذرة أتت بها الرياح، أول رجفة للحياة.

تلألأ نجم في السماء وغرقت في تأمله. فكرت أن هذه المساحة البيضاء بقيت مسلمة للنجوم وحدها منذ مئات الآلاف من السنين. سماط ساطع البياض يمتد تحت السماء الصافية. وشعرت بخفقات قلبي تتصاعد، حينما اكتشفت حجرا أسود فوق ذلك السماط، على بعد خمسة عشر أو عشرين مترا أمامي.

كنت أستريح على سمك ثلاثة مائة مترا من المحار. تتعارض الكتلة الضخمة بكاملها مع وجود أي حجر، كدليل لا يقبل النقض. ربما كانت هناك كتل صوّان نائمة في الأعماق التحتأرضية، الناتجة عن ترسبات الكون، ولكن أي معجزة أخرجت واحد منها إلى هذه المساحة الجديدة الساطعة ؟ بقلب خافق، أمسكت باكتشافي: حجر صلب أسود، بحجم قبضة يد، ثقيل كالحديد، ومصقول على شكل دمعة.

لا يستقبل السماط الممدود تحت شجرة تفاح إلا ثمارها، ولا يستقبل سماط ممدود تحت النجوم إلا غبار الكون: أبدا لم يظهر نيزك جوي أصوله بهذا الدليل القاطع.

وبطبيعة الحال، حينما رفعت رأسي، فكّرت أن ثمارا أخرى تكون قد سقطت من هذه التفاحة السماوية. لقد عثرت عليها في مكان سقوطها، ذلك أن لا أحدا عكّر سكونها منذ آلاف السنين. ولأنها لا تختلط مع المواد الأخرى. مباشرة، بدأت استكشاف المكان لأتأكّد من فرضيتي.

تأكّدت منها بسرعة. التقطت اكتشافاتي الواحدة وراء الأخرى، بوتيرة حجر مقابل هتكار. دائما بمظهر الحمم البركانية المعجونة. دائما بصلب حجر الألماس. هكذا كنت شاهدا، باختزال مذهل، من أعلى مِغْياث قياس النجوم، إلى رذاذ النار البطيء.

**4**

ولكن الأروع هو يقف الوعي الإنساني بهذا المكان البكر، على ظهر الكوكب المقوّس، بين هذا اللباس الممغنط والنجوم، بحيث يمكن لهذا الرذاذ أن ينعكس كما في مرآة. على قاعدة من المعادن، يصبح الحلم معجزة. وأتذكّر حلما.

مرة أخرى، حدث لي أن هبطت في منطقة رملية وكنت أنتظر بزوغ الفجر. كانت التلال المذهبة تمنح للقمر منحدراتها المضيئة، وتصعد المنحدرات المظلمة إلى غاية الخطوط الضوئية. يخيّم على هذه الورشة من الظلال والقمر، الفارغة، سكينة عمل متوقف، وكذا صمت مفخخ، نمت بداخله.

حينما استيقظت، لم أر إلا حوض السماء الليلية، لأنني كنت ممددا على رأس قمة، الذراعان على شكل صليب، مقابل حوض النجوم المتأجّج. أصبت بدوار لأنني لم أفهم ما طبيعة هذه الأعماق ولم أجد جذرا واحدا أتشبث به، ولا سقفا يأويني، ولا حتى غصن شجرة بيني وبين تلك الأعماق، كغطاس قُيّد وسُلّم للسقوط.

ولكنني لم أسقط. اكتشفت أنني مربوط مع الأرض من قمة الرأس إلى أخمص القدمين. أحسست بنوع من السكينة وأنا أسلّم لها جسدي. بدت لي الجاذبية سيّدة مثل العشق.

أحسست بالأرض تسند وركيّ، يساعدني، ترفعني، وتنقلني في الفضاء الليلي. اكتشفت نفسي وأنا ألتصق بالنجم، بوزن مماثل لوزن الانعطافات التي نخضعها للدبابة، أذوق طعم هذا التكاتف العجيب، هذه الصلابة، هذا الآمن، وأدركت تحت جسدي جسر سفينتي المنحني.

كنت أعي جيدا أنني أُحمَل، بحيث كنت سأسمع، بلا مفاجأة، صعود من عمق الأراضي، أنين المواد التي تستعيد توازنها في جهد، تأوّه تلك السفن الشراعية القديمة التي تلتحق بملاجئها، ذلك الصوت الطويل الحاد الذي تصدره القوارب المنزعجة. ولكن الصمت كان يدوم في سمك الأراضي. ويصبح هذا الوزن بداخل كتفي منسجما، مدعما، متساويا للأبد. كنت أقطن هذا الوطن فعلا، مثل أجساد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، الأموات الذين تمّ لفظهم في أعماق البحار، مثقلين بالرصاص.

كنت أتأمل وضعيتي، تائها في الصحراء ومهددا، عار بين الرمال والنجوم، بعيدا عن أقطاب حياتي بكثرة الصمت. وكنت أعرف أنني سأقضي أياما، أسابيع، شهورا للالتحاق بهم إن لم تعثرني طائرة، إن لم يقتلني العرب عند بزوغ النهار. هنا، لا أملك شيئا بتاتا. لم أكن إلا رجلا معرضا للموت، تائها بين الرمال والنجوم، واعي بعذوبة التنفس الوحيدة. ومع ذلك اكتشفت بداخلي أحلاما كثيرة.

كانت تأتيني بلا ضجيج، كما مياه الينابيع، ولم أفهم أولا تلك العذوبة التي غمرتني. لم تكن هناك أصوات ولا صور، ولكن فقط شعور بحضور، بصداقة قريبة أتوقع نصفها. وبعد ذلك، فهمت واستسلمت بعيون مغمضة إلى افتتان ذاكرتي.

كانت هناك في مكان ما حديقة غاصة بأشجار الصنوبر السوداء والزيزفزن، ومنزل قديم أحبه. غير مهم أن تكون قريبة أو بعيدة، أن لا تستطيع إدخال الدفء إلى جسدي أو إيوائي، وأنها قد تحولت إلى وظيفة حلم فقط: يكفي أنها توجد كي تملأ ليلتي بحضورها. لم أعد ذلك الجسد التائه في شاطئ، إنني أتقصّد هدفا، كنت طفلا في ذلك البيت، مليئا بذكرى روائحه، مليئا برطوبة أروقته، مليئا بالأصوات التي تعمره. وإلى غاية نقانق الضفادع التي تصلني من البرك المجاورة. كنت بحاجة إلى آلاف تلك العلامات كي أتعرف على نفسي، كي أكتشف الغياب الذي يصنع صمت هذه الصحراء، كي أعثر على معنى لهذا الصمت المشكل من ألف صمت، حيث الضفادع نفسها تصمت.

لا، لم أعد أقطن بين الرمال والنجوم. لم أعد أتلقَ من الديكور المحيط بي إلا رسالة باردة، كما اكتشفت أصل طعم هذا الخلود الذي خلته صادرا عنه. كنت أرى ثانية تلك الخزانات الكبيرة التي تؤثث الغرف. تنفتح أبوابها على رزم من الجوخ الأبيض كالثلج. تنفتح على مؤن مجمدة من الثلج. تنتقل الخادمة بخفة فأرة من واحدة إلى أخرى، مراقبة دائما، يطوي وتنزع الطي، تعدّ الأفرشة المغسولة وتصيح: "إلهي، ما هذا الشقاء" كلما لاحظت بليا يهدّد خلود المنزل، راكضة تحرق عينيها تحت مصباح ما لترقع انشقاقات هذه السماط المقدّسة، وتخيط شراع السفينة، وتخدم لا أعرف ماذا بالضبط، ربما ربّا أكبر منها، ربّا أو سفينة.

آه... أنا مدين لك بصفحة على الأقل. حينما كنت أعود من أسفاري الأولى يا سيّدتي، أجدك غارقة إلى الركبتين وسط أكوام من الألبسة، الإبرة في اليد، تزيدين كل سنة شيخوخة وشيبا، وأنت تحضرين دوما وبيديك هذه الأغطية النظيفة من أجل راحة نومنا، وذلك السماط الساطع فوق طاولة الأكل تحت ديكور من البلور والنور الدافئ. كنت أزورك في قاعة الغسيل وأجلس قبالتك وأحكي لك خطر أسفاري كي أبهرك، كي أفتح عينيك على العالم، كي أفسدك. كنت تقولين دائما أنني لم أتغيّر. حينما كنت طفلا كنت أمزق قمصاني –آه لذلك الشقاء- وأجرح ركبتي، ثمّ أعود إلى المنزل كي أضمد جراحي مثل هذا المساء تماما. لكن لا، لا يا سيّدتي... لا أعود من عمق الحديقة وإنما من طرف الدنيا، وأحمل معي رائحة العزلة الحادة وزوبعة ريال الرمال وأقمار المناطق الاستوائيات الساطعة. وتقولين طبعا طبعا، يحب الأطفال الركض، يكسِّرون عظامهم ويعتقدون أنهم أقوياء. لكن لا، لا يا سيّدتي، رأيت أبعد من هذه الحديقة. أتعرفين أن ظلالها لا تساوي شيئا مقارنة مع ما رأيت؟ ستبدو تائهة وسط الرمال وصخور الغرانيت والأدغال ومستنقعات الأرض. أتعرفين أنه توجد أقاليم إن التقاك فيها الرجال سيصوِّبون فورا بنادقهم اتجاهك؟ أتعرفين يا سيّدتي أنه توجد صحاراي ينام فيها الناس في الليالي القارصة بلا سقف ولا سرير ولا فراش...

تقولين آه عليك أيها البربري.

لا أفهم جيدا إيمانها إلا وألصقته بإيمان خادمة كنيسة. فأشفق على قدرها البسيط الذي جعلها عمياء وصماء...

ولكن في هذه الليلة، في عمق الصحراء، وأنا عار بين الرمال والنجوم، أنصفتها.

لا أعرف ماذا يحدث بداخلي. تقيّدني هذه الجاذبية مع الأرض فيما كانت نجوم عديدة يغريني بالسفر بعيدا. جاذبية أخرى تعيدني إلى ذاتي. أشعر بجسدي يجذبني باتجاه أشياء كثيرة. كانت أحلامي أكثر واقعية من هذه الكثبان الرملية، من هذا القمر، وهذه الأشياء الصغيرة الحاضرة. آه، إن روعة بيت ليس في كونه يأويك أو يدفئك، ولا لأننا نملك جدرانه. بل لأنه رسب ببطء ما بداخل قلبنا من لطف ونعومة. لأنه شكّل في عمق القلب تلك الكتلة الغامضة التي تولّد الأحلام مثل ينابيع الماء...

يا صحرائي، يا صحرائي، ها أنت بكليتك تفتنك ناسجة صوف.

**5**

**واحـــة**

حدثتكم كثيرا عن الصحراء، وقبل أن أحدثكم عنها أيضا، أفضل وصف واحة. إن تلك التي عادت صورتها إلى ذاكرتي ليست قابعة في عمق الصحراء. توجد معجزة أخرى للطائرة وهي أنها تلفظك مباشرة في عمق الغرابة. تصوّر أنك ذلك البيولوجي الذي يدرس من خلف نافذته الصغيرة المحشر البشري، وتنظر ببرودة إلى تلك المدن القابعة في السهول، في قلب طرقها التي تنفتح على طريقة النجوم، وتغذيها وأزقتها بنُسْغ الحقول. ولكن إبرة ارتعدت على مِضْغط، فتحوّل ذلك العشب الأخضر هناك في الأسفل إلى

كون. فتُصْبح سجين أرضية خضراء في حديقة نائمة.

ليست المسافة هي التي تقيس البعد. يمكن لسور بداخل حديقة بيتك أن يُخفي من الأسرار أكثر مما يخفيه سور الصين العظيم، كما أن روح طفلة صغيرة يحميها الصمت أكثر مما يفعله سمك الرمال مع واحة صحراوية.

سأقص عليكم توقفا قصيرا في مكان ما عبر العالم. حدث ذلك قرب "الكونكورديا" بالأرجنتين، وكان يكون أن يحدث في أي مكان آخر: هكذا يبقى اللغز منتشرا.

هبطت في حقل ولم أكن أعرف أنني سأعيش حكاية عجيبة. لم تكن سيارة الفورد القديمة التي كانت تحملني تتميّز بعلامة خاصة، ولا تلك العائلة الهادئة التي استضافتني.

- ستبيت عندنا هذه الليلة...

عند منعطف للطريق ظهرت باقة من الأشجار تحت ضوء القمر، وخلف الأشجار ذلك المنزل. يا لغرابة ذلك المنزل؟ منزل ضخم ومكوّم، أشبه بقلعة. قصر خرافي يمنحك بمجرّد اجتياز سياجه ملاذا هادئا، آمنا، كأنك بداخل دير.

عندئذ ظهرت فتاتان. نظرتا إليّ برصانة مثل حكمين حارسين عند عتبة مملكة ممنوعة الدخول: مطّت إحداهما شفتيها وضربت الأرض بعود حطب غير الجاف. بعد التقديم، مدّتا يديهما للمصافحة بدون كلمة، بنوع من التحدي، قبل أن تنصرفا.

تسليت بالوضع ووقعت تحت إغرائه. كان كل ذلك بسيطا، صامتا وخافتا مثل كلمة السرّ الأولى. قال الأب ببساطة:

- هيه، هيه... إنهما غير متمدنتين بعد.

ودخلنا.

كنت أحبّ في البراغواي هذا العشب الساخر الذي يظهر أنفه بين بلاطات العاصمة، الآتي من الأدغال غير المرئية ولكنها حاضرة، جاء ليتأكّد إن كانت المدينة مصانة جيدا، إن لم تحت بعد ساعة دفع جميع تلك الأحجار. أحب ذلك الخراب الذي لا يعبر إلا عن ثراء كبير. ولكنني هنا كنت مفتونا.

لأن كل شيء كان خربا، وبشكل محبوب، على طريقة شجرة هرمة مغطية بالطحلب، تكون السنون قد شققت جذعها، مثل المقعد الخشبي الذي يجلس عليه العشاق منذ أجيال. كان الحطب باليا، ومصارعها مقضومة، والكراسي معوجة. إذا لم يكن شيء يصلَّح، في المقابل تنظَّف كل الأماكن بعناية ملحوظة. كان كل شيء نظيفا، لامعا.

اتخذت قاعة الضيافة وجها أخاذا مثل وجه عجوز مليء بالتجاعيد. تشققات الجدران، تجزّع السقف، كنت معجبا بكل شيء، وفوق كل ذلك الأرضية المحفورة هنا وهناك، تترنّح مثل جسر حبلي، ولكنها نظيفة لامعة. يا له من منزل غريب؟ لا يثير أدنى شعور بالإهمال أو بالتهاون، بل يفرض عليك احتراما عجيبا. ربما كانت كل سنة تمر إلا وتضيف مسحة من الجاذبية إلى تعقيد وجهه، إلى خشوع جوّه الأليف، كما تفعله تلك المخاطر التي نجتازها لننتقل من قاعة الضيافة إلى قاعة تناول الأكل.

- حذار...

كانت هناك حفرة. لاحظ المُحذّر أنني كنت سأكسّر إحدى ساقيّ في تلك الحفرة. لم يكن أحد مسئولا عن تلك الحفرة: إنه من أعمال الزمان. يا له من ازدراء سيّد ذلك الاعتذار الذي قدّمه صاحب المنزل بهيئة الأسياد الكبار. لم يقولوا لي: "نستطيع سدّ هذه الحفر، إننا أغنياء، ولكن..." لم يقولوا لي أيضا وهي الحقيقة: "اكترينا هذا المنزل من البلدية لمدّة لاثين سنة. تعود إليها وظيفة الصيانة. يتعنت كل طرف..." كانوا يزدرون الشرح، وكانت يفتنني ذلك الانشراح. اكتفى مضيفي بملاحظة:

- هيه، هيه... المنزل مخرّب قليلا...

قال ذلك بنبرة خفيفة، غير مبالية، بحيث أدركت أن أصحاب المنزل لم يحزنهم وضعيته المهملة. هل تتصورن فرقة من البنائين والنجارين والجصّاصين ينشرون في ماض قريب أدواتهم المدنّسة ليرمِّموا في ظرف أسبوع منزلا سوف لن تتعرفوا عليه أبدا، حيث تشعرون أنكم مجرد زوار لا غير؟ منزل دون أسرار، دون زوايا غامضة، دون حفر تحت الأقدام، دون أماكن منسية، يعني نوعا من صالونات الفنادق الفخمة؟

من الطبيعي أن تختفي الفتاتان بتلك السرعة بداخل هذا المنزل الغاص بالألغاز. كيف تكون تسقيفة البيت إذا كانت قاعة الضيافة تحوي ثراء تسقيفة؟ حينما نتوقع أن انفتاح أدنى باب من أبواب الخزائن سيسمح بسقوط رزم من الرسائل الصفراء، فواتير الجدّ الأول، المفاتيح التي يفوق عددها عدد الأقفال في البيت، والتي يصلح أحدها لأي قفل. مفاتيح غير صالحة بشكل يثير العجب، يتعارض مع المنطق، ويؤجّج أحلاما حول السراديب المنسية وصناديق الكنز المدفونة وقطع الذهب المختومة.

- من فضلك، العشاء جاهز...

جلسنا إلى طاولة الأكل. من غرفة إلى أخرى، كنت أستنشق رائحة المكتبة العتيقة التي تساوى كل عطور الكون، المُنتَشرة مثل البخور. وكنت أحب خاصة نقل المصابيح. مصابيح حقيقية ثقيلة، نحملها من غرفة إلى أغرى، مثلما كان يحدث في طفولتي الأولى، والتي تحرك أشباحا رائعة على واجهات الجدران. نرفع معها باقات أضواء وجرائد سوداء. ثمّ وبعد أن تأخذ المصابيح أماكنها، تتجمّد شواطئ النور وتلك الجيوب الليلية الشاسعة حولنا، حيث يطقطق الخشب العتيق.

ظهرت الفتاتان ثانية في سرية وصمت مثلما اختفتا تماما. جلستا إلى الطاولة برصانة. تكون بالتأكيد قد غذّتا كلابها وطيورها وفتحتا نوافذها لليل الشفاف وشمّتا رائحة النباتات التي تجلبها رياح المساء. الآن وهما تمدّدان مناديلهما، تترقبان تحركاتي باختلاس النظر، بحذر، تتساءلان إن كانتا ستضنفانني ضمن عدد حيواناتهما الأليفة أم لا. لأنهما تملكان أيضا عظاية أمريكية عاشبة ونِمْسا وثعلبا وقردا ونحلا. تعيش جميع تلك الحيوانات مختلطة، في وئام عجيب، مشكلة جنة أرضية جديدة. كانتا تسيطران على جميع حيوانات الخلق، تغريانها بأناملها الرقيقة، تغذّيانها، تسقيانها وتحكيان لها قصصا يستمع إليها الجميع، من النِمس إلى النحل.

وكنت أتوقع أن أرى الفتاتين النَبهتَين تستثمران كل ذهنهما الناقد وكل رقتهما لتشكلان موقفا من هذا الذكر الذي يقابلهما، لتطلقان حكما سريعا، سريا ونهائيا. في طفولتي، كانت أخواتي يمنحن نقاطا لتقييم الضيوف الذين يدعون لأول مرة إلى طاولتنا. وحينما يدور النقاش حولهم، يسقط عدد وسط الصمت:

- أحد عشر...

ويم يذق طعم هذا الإغراء إلا أخواتي وأنا.

أربكتني تجربتي حول هذه اللعبة قليلا. وكنت منزعجا نوعا ما لأنني أدركت أن الفتاتين على دراية كبيرة بالسلوكات، حيث تعرفان التمييز بين الحيوانات الخادعة من تلك الصادقة، تعرفان فك رموز خطو الثعلب إن كان مزاجه معكرا أم لا، تملكان معرفة عميقة للحكات الداخلية.

أحببت تلك العيون الحادة وتلك الأرواح الصغيرة المستقيمة، ولكنني فضّلت لو غيرتا اللعبة قليلا. تخاذلت خوفا من "أحد عشر"، فرحت أمدّ لهما الملح وأسقي لهما الشراب، ولكنني في كل مرة حينما ارفع بصري أجد ثانية تلك الرصانة الوديعة التي يتحلى بها القضاة النزيهين.

لا ينفع المدح في هذا الحالة: تجهلان التبجح. التبجح، وليس الكبرياء الجميل، الذي سيقول عنهما قولا جميلا بلا مساعدتي، أكثر مما سأتجرأ على الإفصاح به. لم أفكر استغلال مهنتي لأنه من الخطورة بمكان أن نتسلق إلى أعلى آخر غصن شجرة دلب، فقط لنترقب إن كانت أفراخ عش تتزين بالريش، أو لنحيّ الأصدقاء.

واصلت العروستان الصامتتان الحراسة خلال فترة تناول العشاء، بحيث كنت كلما رفعت بصري إلا وألتقي بنظرتهما المختلسة إلى حدّ أنني توقفت عن الحديث. خيّم صمت، وخلال هذا الصمت ارتفع صفير، صرّ تحت الطاولة ثمّ سكت. رفعت عينين حائرتين. عندئذ، ربما كانتا راضيتين بامتحانهما، ولكنهما استخدمتا آخر لمستهما الخاصة، شرحت لي الفتاة الصغرى وهي تقضم الخبز بأسنانها الصغيرة البرية، وببراءة كانت تأمل من ورائها إدهاش الضيف المتوحش إن كان فعلا واحدا منهم:

- إنها الثعابين.

وسكتت، راضية، كما لو أن الشرح كاف لأي شخص ليس أبله. ألقت أختها نظرة خاطفة كي تتأكّد من رد فعلي العفوي، ثم غطست الاثنتان وجهاهما الوديعين البريئين باتجاه صحنيهما.

- آه... إنها الثعابين...

بالطبع، انفلتت مني تلك الكلمات. تدحرجت بين ساقيّ، لامست ربلتي، فصارت ثعابين...

من حسن حظي أنني ابتسمت. وبلا تصنع: كانتا ستحسان به. ابتسمت لأنني كنت مسرورا، لأن المنزل كان يثير إعجابي من دقيقة على أخرى؛ ولأنني أيضا كنت أرغب في المزيد من المعرفة حول الثعابين. أنقذتني الفتاة الكبرى:

- تملك جحرها في حفرة تحت الطاولة.

أضافت الصغرى:

- عند العاشرة مساء تعود إلى جحرها. أثناء النهار تصيد أكلها.

بدوري أصبحت أختلس النظر إلى الأختين، أتأمل رقتهما وضحكتهما الصامتة خلف الوجهين الوديعين. أعجبت بهذه الملكية التي تمارسانها...

اليوم أحلم. بدا كل هذا بعيدا. ماذا حدث للعروستين؟ أكيد أنهما تزوجتا. ولكن هل تغيرتا؟ من الصعوبة المرور من وضع طفلة صغيرة إلى وضع امرأة؟ ماذا تصنعان في بيت جديد؟ كيف أصبحت علاقاتهما بالعشب البري والثعابين؟ كانتا ممتزجتين بشيء كوني. ولكن يأتي يوم تستيقظ المرأة بداخل الفتاة. نحلم أخيرا بإعطاء نقطة تسعة عشر. يزن عدد تسعة عشر في عمق القلب. حينئذ يتقدّم أحمق. لأول تنخدع العيون الحادة وتضيئه بألوان جميلة. لو يقول الأحمق شعرا، يعتقد أنه شاعر. يعتقد أنه يتفهم الأرضية المحفورة، يعتقد أنه يحب الثعابين. يعتقد أن الثقة التي يمنحها لثعبان يرقص تحت الطاولة بين ساقيه تعلي من شأنه. فيُمنح القلب، تلك الحديقة المتوحشة، إلى قلب لا يحب إلا الحدائق الأليفة، المعتنى بها. ويأخذ الأحمق الأميرة إلى العبودية.

**6**

**في الصحراء**

**1**

كانت تلك النعومة ممنوعة علينا حينما كنا نشتغل في الخطوط الصحراوية خلال أسابيع وشهور وسنوات، مسجونين بداخل الرمال، نجوب من قلعة إلا أخرى، دون رجوع. لا تمنح هذه الصحراء واحات مماثلة: حدائق وفتيات، يا لها من خرافة. طبعا يمكننا، بعد الانتهاء من عملنا، أن نعيش بعيدا في أمكنة حيث تنتظرنا ألف فتاة. أكيد أنها هناك، في وسط نُموسها أو كتبها، تحلم في صبر بمصائر لذيذة. أكيد أنها تزيد جمالا...

ولكنني أعرف العزلة. علمتني ثلاث سنوات طعمها جيدا. لا يخيفنا شباب ينقضي في بلدٍ معدني، ولكن يبدو أن العالم هو الذي يشيخ حينما يكون بعيدا عنّا. شكّلت الأشجار ثمارها، أخرجت الأرض قمحها، أضحت النساء جميلات. ولكن الموسم يتقدّم فينبغي الإسراع بالعودة... ولكن الموسم يتقدّم ونحن مرتبطون في مكان بعيد... تنزلق خيرات الأرض بين أصابعنا مثل رمل الكثبان الناعم.

في العادة، لا يشعر الرجال بانسياب الزمان. يعيشون في سلم مؤقّت. ولا نشعر بثقله إلا بعد اجتيازنا المهبط، حينما تعصف علينا تلك الرياح الصابيات، الزاحفات دوما. كنا أشبه بذلك المسافر في القطار السريع، المليء بهدير محاور العجلات الصاخبة في الليل الدامس، والذي يدرك عبر قبضات النور المتسرّب خلف الزجاج جريان مناظر الريف والقرى والمزارع الرائعة التي لا يستطيع الإمساك بها في ذاكرته لأنه مسافر. نحن أيضا، ورغم هدوء مراكز المهابط، كنا نشعر بأنفسنا مسافرين، تغمرنا حمى خفيفة، ولا تزال آذاننا تصفر بضجيج الطيران. نحن أيضا، نكتشف أن مستقبلا مجهولا يزحف بنا، عبر وزن الرياح، بفضل خفقات قلوبنا.

يضيف انشقاق القبائل البدوية سرّا وغرابة على الصحراء. كانت الليالي التي نقضيها في رأس جوبي، من ربع ساعة إلى أخرى، متقطعة بهدير قرع ساعة حائطية: ينبِّه الحرّاس بعضهم بعضا، من مكان قريب لآخر، بواسطة صيحة نظامية كبيرة. هكذا كانت قلعة رأس جوبي الأسبانية تحمي نفسها من التهديدات التي لا تظهر وجهها قط. وكنا نحن مسافري هذه السفينة العمياء نستمع إلى النداء يكبر من نقطة حراسة إلى أخرى، مشكلا حولنا دوائر طيور بحرية.

ومع ذلك أحببنا الصحراء.

إذا بدت الصحراء من الوهلة الأولى عبارة عن فراغ وصمت فلأنها لا تمنح نفسها لعشاق يوم وليلة. أمام هؤلاء، تتملص حتى قرية صغيرة من قرانا العديدة. إذا لم نتخلى من أجلها عن باقي العالم، إذا لم نندمج في تقاليدها، في عاداتها، في خصوماتها، سنجهل كل شيء عن الوطن الذي يشكله بالنسبة للبعض. بل أكثر من هذا، إن الإنسان الذي يسوّر على نفسه في رهبانيته ويعيش حسب قوانين تبقى مجهولة لدينا، إن هذا الإنسان يتحرك حقا ضمن عزلة تيبيتية، في قفار لا يمكن لأي طائرة أن تحطنا فوق أرضيته. هل سنتفقد زنزانته؟ إنها فارغة. توجد مملكة هذا الإنسان بداخله. هكذا فالصحراء ليست مشكلة من الرمال ولا من قبائل التوارق، ولا من قبائل البدو حتى وإن تسلّحت بالبنادق...

ولكن ها نحن اليوم نعاني من العطش. وهذه البئر التي نعرفها، نكتشف اليوم فقط أنها تشع نورها على امتداد البصر. يمكن لامرأة غير مرئية أن تُسحِر بيتا كاملا. البئر كما الحب، تمتد بعيدا.

تبدو الرمال من الوهلة الأولى مساحة فارغة. ثمّ يأتي اليوم الذي نقرأ تعرجات المعطف الكبير الذي تتدثر به، لأننا خفنا من رياح منطقة القبائل الغازية. الرياح تغيّر أيضا وجه الرمال.

تقبلنا قواعد اللعبة، تلك اللعبة التي تشكلنا على صورتها. تظهر الصحراء بذاتنا. إن الاقتراب من الصحراء لا يتحقق بزيارة الواحة وإنما بتشكيل ديننا من ينبوع المياه.

**2**

ابتداء من سفري الأول، عرفت مذاق الصحراء. هبطنا أنا وريغال وغيومي هبوطا اضطراريا بقرب قلعة نواقشوط. كانت هذه القلعة الموريتانية معزولة عن كل حياة مثل جزيرة صغيرة تائهة وسط البحر. يعيش بداخلها أسوارها رقيب عجوز مع خمسة عشر سينغاليا. استقبلنا مثل مبعوثين من السماء.

- آه... يسرني كثيرا أن أتحدث إليكم... إنه لسرور عظيم.

كانت الفرحة كبيرة إلى حدّ جعلته يبكي.

- منذ ستة أشهر، أنتم الأوائل. أزوّد بالمئونة والذخيرة كل ستة أشهر. تارة يأتي الملازم. تارة يأتي النقيب. المرّة السابقة جاء النقيب...

كنا لا نزال تحت تأثير صدمة الهبوط الاضطراري. على بعد ساعتين من دكار حيث كان العشاء يحضّر، تتكسّر سواعد المحرّك ونغيّر وجهتنا. لعبنا دور سراب قرب الرقيب العجوز الذي يبكي.

- آه... اشربوا، اشربوا... يفرحني أن أسقيكم خمرا... تصوّروا قليلا ماذا حدث لي. حينما مرّ النقيب، لم تكن عندي قطرة خمر واحدة أقدّمها للنقيب.

حَكيت هذه القصة في كتاب، لم تكن من نسج الخيال. قال لنا:

- في المرّة الأخيرة، لم نجد خمرا نحتفي به بوصول القافلة... شعرت بالخزي إلى حدّ أنني طلبت نقلي من هذا القفار.

هوس الرقيب العجوز أن يدقّ قدحه مع قدح الآخر الذي ينزل توّا من المهاري، يتصبّب عرقا. عاش ستة أشهر من أجل هذه الدقيقة. منذ شهر تقريبا، بدأ تلميع الأسلحة وتنظيف المركز من الملاجئ التحتأرضية إلى شرفات السطوح. منذ أيام قليلة، وباقتراب تاريخ اليوم المحمود، تبدأ المراقبة من أعلى السطوح، مراقبة الأفق لرؤية غيمة الغبار التي ستلف مفرزة "عطّار" المتحرّكة...

ولكن الخمر ينقص: لا يمكن الاحتفال. لا يمكن دق الأقداح بعضها البعض. يكتشف الرقيب أنه فقد شرفه...

- إنني أستعجل عودته. أنتظره...

- أين هو الآن أيها الرقيب؟

حدّق الرقيب في اتجاه الرمال وقال:

- لا أعرف... إن النقيب يوجد في كل مكان...

كانت حقيقية تلك الليلة التي قضيناها على سطح القلعة، نتحدث مع النجوم. لم يكن هناك شيء نراقبه. وحدها النجوم كانت حاضرة، بكامل أعدادها، تماما كما في الطائرة، ولكنها ساكنة.

في الطائرة، حينما تكون الليلة جميلة جدا، ننساق خلف الرؤية، نتوقف عن القيادة، وشيئا فيئا تنحرف الطائرة نحو اليسار. نخالها مستقيمة حينما نكتشف قرية تحت الجناح الأيمن. في الصحراء، لا توجد قرى. ربّما كانت بواخر صيد في عرض البحر. ولكن في عرض الصحراء، لا توجد سفن صيد. ماذا إذا؟ حينئذ نبتسم للخطأ. ببطء، نعيد الطائرة إلى توازنها. وتعود القرية إلى مكانها. نعيد تعليق مجموعة النجوم الساقطة إلى كوكبتها. القرية؟ نعم. قرية نجوم. ولكن من أعلى القلعة، لا نرى إلا فضاء مجمدا، بأمواج رمل بلا حراك. كوكبة نجوم معلقة جيدا. يحكي لنا الرقيب عنها:

- انتبهوا معي... أعرف جيدا اتجاهاتي... هذه النجمة تؤدي مباشرة إلى تونس.

- أنت من تونس؟

- لا. قريبتي.

خيّم صمت طويل جدا. ولكن الرقيب قرّر أن لا يخفي عنا شيئا.

- ذات يوم، سأذهب إلى تونس.

صحيح، ولكن عبر طريق أخرى غير المشي مباشرة باتجاه تلك النجمة. إلا إذا سلّمته بئر جافة إلى شعرية الهذيان في يوم رحلة صحراوية. حينئذ ستختلط النجمة والقريبة وطريق تونس. حينئذ ستبدأ المسيرة الملهمة التي يراها غير العارفين بها مؤلمة.

- طلبت مرة من النقيب رخصة خروج للذهاب إلى تونس، في علاقة مع هذه القريبة. فأجابني...

- وأجابك...

- وأجابني: "العالم مليء بالقريبات." وبما أن دكار ليست بعيدة، فبعثني إليها.

- هل كانت جميلة قريبتك؟

- قريبة تونس؟ طبعا. كانت شقراء.

- لا، قريبة دكار؟

أيها الرقيب، كنا سنقبلك بسبب جوابك الحزين، الغاضب قليلا:

- كانت زنجية...

الصحراء بالنسبة إليك أيها الرقيب؟ إنها ربّ سائر دوما نحوك. إنها أيضا نعومة قريبة شقراء خلف خمسة آلاف كيلومترا من الرمال.

الصحراء بالنسبة إلينا؟ إنها ما يولد بداخلنا. إنها ما نتعلمه حول ذواتنا. نحن أيضا كنا في تلك الليلة نعشق قريبة ونقيبا...

**3**

تقع "بور إيتيان" في حدود الأقاليم المتمرّدة، وهي ليست مدينة. تتكوّن من ثكنة ومستودع وبناية من الحطب خاصة لرجال الطائرات البريدية. الصحراء حولها تمتد على بعد البصر، فأضحت "بور إيتيان" رغم مواردها العسكرية الضعيفة غير مرئية تقريبا. لمحاصرتها، يجب اجتياز حزام من الرمال والنار بحث لا تستطيع القبائل الغازية الالتحاق بها إلا بعد جهود مضنية، بعد انقضاء مؤن المياه. ومع ذلك، كان دوما هناك فيما، يتذكره أهل المنطقة، في مكان ما بجهة الشمال، شخص من القبائل الغازية يمشي باتجاه "بور إيتيان". كلما يأتي النقيب-المحافظ ليشرب كأس شاي عندنا، إلا ويرينا مسيرته على الخريطة، مثل من يحكي خرافة أميرة جميلة. ولكن الغازي لا يصل أبدا، تجفه رمال الصحراء مثلما تجف مجرى نهر، فنسميه الغازي الشبح. تنام تلك القنابل والذخيرة التي وزّعتها علينا الإدارة مساءً في صناديقها تحت أقدام أسرّتنا. ولم يكن أمامنا أن نصارع ضد عدو إلا الصمت، يحمينا بؤسنا أولا وقل كل شيء. ويدير لوكا، رئيس المطار، ليل نهار، آلة الأسطوانات المسجلة التي تحدثنا بلغة نصف مفقودة، بعيدة عن الحياة، مثيرة فينا حنينا بلا موضوع يشبه للعطش بشكل غريب.

تعشينا هذا المساء داخل الثكنة، وأرانا النقيب- المحافظ حديقته. لقد تلقى فعلا من فرنسا ثلاثة صناديق اجتازت أربعة آلاف كيلومترا وهي مليئة بتراب حقيقي. نبتت فيها ثلاثة أوراق خضراء، فلمسناها بلطف كما نفعل مع المجوهرات. حينما يتحدث، يقول النقيب: إنها حديقتي. وحينما تعصف الرياح الرملية التي تجف كل شيء، تُنزَل الحديقة إلى السرداب.

نقطن على بعد كيلومتر من الثكنة. بعد العشاء، نلتحق بمرقدنا تحت ضوء القمر. تحت القمر، يكتسي الرمل لونا ورديا. نشعر بعرينا ولكن الرمل وردي. ولكن نداء من الحارس يعيد إلى العالم حزنه. الصحراء جلها تخاف من أشباحنا، وتسألنا، لأن شخصا من القبائل الغازية يزحف باتجاهنا.

ينعكس صدى جميع أصوات الصحراء في صيحة الحارس. ليست الصحراء منزلا فارغا: قافلة عربية تمغنط الليل.

يمكن أن نشعر بأمن. ومع ذلك... مرض، حادثة، هجوم من القبائل الغازية، كم من تهديدات كثيرة تزحف في صمت الليل. إن الإنسان هدف على وجه الأرض يقصده قناصون سريون. ولكن الحارس السنغالي يذكرنا به مثل نبي.

نُجيب: "فرنسيون"، ونمر قرب الملك الأسود. ونتنفس الصعداء. ما هو الشرف الذي أعاد لنا هذا التهديد... صحيح أن التهديد لا يزال بعيدا، غير مستعجل، يصده حواجز رملية كثيرة: ولكن العالم ليس على شكله الأول. تصبح فاخرة هذه الصحراء. يصنع ربوبيتها شخص من القبائل الغازية يزحف ببطء، وربما لن يصل أبدا.

الساعة الآن الحادية عشر ليلا. عاد لوكا من مركز الراديو وأعلن وصول طائرة دكار لمنتصف الليل. كل شيء على ما يرام بداخلها. سننقل البريد إلى طائرتي في منتصف الليل وعشر دقائق، وسأطير باتجاه الشمال. حلقت لحيتي بعناية أمام مرآة متصدعة. من حين لآخر، المنشفة حول رقبتي، أذهب إلى غاية الباب وأنظر الرمال العارية: الجوّ جميل ولكن الرياح قادمة. رجعت إلى المرآة. فكّرت. رياح مُستقرة لمدة شهر، ولكنها إن تحرّكت أكثر، أحيانا ستربك السماء كلها. الآن، أرتدي بذلتي الخاصة: أشدّ مصابيح الإنقاذ حول الحزام، مقياس العلو، أقلامي... أذهب إلى غاية نيري الذي سيكلف هذه الليلة بالراديو. كان هو أيضا يحلق لحيته. قلت له: "لا بأس". لحدّ الآن لا بأس. تعتبر هذه العملية الأولية أقل صعوبة من عمليات الطيران. ولكنني أسمع صريرا، تصطدم حشرة بالمصباح. بدون أن أعرف لماذا، انقبض قلبي.

أخرج ثانية وأنظر: يَعمّ الصفاء كل شيء. يبرز جرف يقع بمحاذاة الميدان منفصلا عن السماء كما لو أننا في وضح النهار. يخيّم على الصحراء صمت منزل منضبط. وها هي فراشة خضراء ويعسوبان يدقان مصباحي. ومن جديد ينتابني شعور غامض، ربما كان خوفا، ربما كان ابتهاجا، ولكنه صادر من أعماقي التي لا تزال مبهمة، ولا تكاد تعلن عن نفسها إلا ببطء شديد. شخص يحدثني من بعيد جدا. هل هذه هي الغريزة؟ أخرج ثاني: لقد هدأت الرياح كلية. لا يزال الجوّ باردا. ولكنني تلقيت إنذارا. أتوقع، أظن أنني أتوقع ماذا أنتظر: هل كنت على صواب؟ لم تبعث لي السماء والرمال أدنى إشارة، ولكن يعسوبين وفراشة خضراء تحدّثت إليّ.

صعدت فوق كثيب وجلست مقابل الشرق. إذا كنت على صواب، فـ"هذا" لن يتأخر كثيرا. عما يبحث اليعسوبان هنا، على بعد مئات الكيلومترات من واحات الأقاليم الداخلية؟ تؤكّد بقايا حطام خفيف لفظتها الأمواج إلى الشاطئ على وجود زوبعة في عرض البحر. ولكن هذه الحشرات تؤكّد أن عاصفة رملية تزحف باتجاهنا؛ عاصفة شرقية تكون قد جرّدت أشجار النخيل البعيدة من فراشاتها الخضراء. طفقت رغوتها تمسني. تزمجر رياح الشرق، أبهة أكيدة لأنها الدليل القاطع، أبهة أكيدة لأنها تشكل تهديدا ثقيلا، أبهة أكيدة لأنها تحمل عاصفة بين جناحيها. لا يكاد يصلني نفسها الضعيف. إنني آخر صخرة تلحسها الموجة. لم يتحرّك شراع واحد على بعد عشرين مترا ورائي. لفّني حريقها مرة واحدة بلمسة بدت ميتة. ولكنني أعرف أن الصحراء ستسترجع نفسها خلال الثواني الآتية وستطلق نفسها الثاني. قبل ثلاث دقائق، سيرتجف كُمّ الريح المثبت فوق مستودعنا. وقبل عشر دقائق، ستغزو الرمال السماء. بعد قليل، سنطير وسط هذه النار، نيران الصحراء العائدة.

ولكن ليس هذا الذي يثير انفعالي. إن ما يملأني بغبطة متوحشة، هو أنني فهمت بنصف كلمات لغة سرية، لأنني شممت أثرا مثل الرجل البدائي الذي يقرأ مستقبله عبر إشاعات ضعيفة، لأنني قرأت غضب الطبيعة القادم في ضربات جناحي بعوضة.

**4**

كنا هناك في اتصال مع العرب المتمردين. يبرزون من عمق الأقاليم الممنوعة، هذه الأقاليم التي نجتازها بالطيران؛ يغامرون إلى غاية ثكنات جوبي وسسنيروس لشراء أرغفة السكر أو الشاي، ثمّ يتوارون خلف أسرارهم. ونحاول عند مرورهم ترويض بعض منهم.

إذا تعلّق الأمر بقادة نافذين، نركبهم معنا، بموافقة رئاسة الخطوط البريدية، لنفرّجهم على العالم. كان الهدف يتمثل في إخماد جذوة كبريائهم، لأنهم كانوا يقتلون المسجونين بسبب عاطفة الاحتقار التي يشعرونها إزاءهم وليس عن حقد أو ثأر. حينما كانوا يصادفوننا بقرب الثكنات، لم يكونوا يشتموننا، بل يكتفون باستدارة الرؤوس والبصق. وكانوا يستمدون هذا الكبرياء من وهم عظمتهم. قال لي بعضهم، من أولئك الذين شكلوا جيشا من ثلاثة مائة بندقية: "أنتم محظوظون هناك في فرنسا لأنكم تقعون على بعد مائة يوم من المشي..."

كنا نسيح بهم إذا، وحدث أن زار ثلاثة منهم فرنسا، هذا البلد المجهول. كانوا من جنس أولئك الذين بكوا عندما اكتشفوا الأشجار، بعد أن رافقوني مرّة إلى السنغال.

حينما ألتقي بهم ثانية تحت خيمهم، ينوهون بالحفلات الليلية حيث ترقص النساء العاريات وسط الأزهار. ها هم رجال لم يروا أبدا في حياتهم شجرة ولا ينبوع ماء ولا وردة، والذين يعرفون عن طريق القرآن وحده وجود الحدائق التي تجري من تحتها الأنهار والتي يسمونها الجنة. ولكن هذه الجنة وهذه الجواري الفاتنة نربحها عن طريق الموت المر على الرمال برصاصة كافر، بعد ثلاثين سنة من البؤس. ولكن الله خدعهم لأنه لم يشترط من الفرنسيين، الذين منح لهم جميع هذه الكنوز، لا فدية العطش ولا فدية الموت. لذلك يحلم الآن هؤلاء القادة الشيوخ. اكتشف هؤلاء القادة أن الصحراء الممتدة حول خيامهم سوف لن تمنح لهم إلا ملذات قليلة وإلى غاية الموت، لذلك أسرونا ببعض أفكارهم:

- أتعرف... إله الفرنسيين... إنه أكثر سخاء تجاه الفرنسيين من إله العرب تجاه العرب...

قبل أسابيع قليلة، زاروا منطقة "الصافْوا". أخذهم مرشدهم قرب شلال ثقيل، نو من عمود مضفور، والذي كان يطلق هديرا ضاما. قالوا لهم:

- إشربوا.

وكانت المياه عذبة. المياه... كم يلزم من أيام مشي هنا للالتحاق بأقرب بئر، وإن وجدوها، كم يلزمهم من ساعات لنزع الرمل الذي تكدّس فوقها، وإلى غاية الوحل الممزوج ببول الجمال. المياه... في رأس جوبي وسسنيروس وفي بور إيتيان، لا يطلب أطفال العرب الصغار النقود، وإنما، بعلبة صبار في اليد، يطلبون الماء:

- قليلا من الماء... الماء...

- بشرط أن تبقى وديعا.

المياه التي يساوي وزنها ذهبا، المياه التي تجذب أدنى قطرة منها من عمق الصحراء الشرارة الخضراء التي ستنبت العشب الصغير. إذا سقط المطر في مكان ما، انتشرت حمى الترحال في الصحراء. تنتقل القبائل نحو الكلأ الذي سينبت على بعد ثلاثمائة كيلومترا... وهذه المياه البخيلة والتي لم يسقط منها ولو قطرة واحدة على بور إيتيان منذ عشر سنوات، تتفجّر هناك، كما لو أن خيرات العالم كلها تتدفق من خزان مشقوق.

قال لهم المرشد:

- حان وقت العودة.

ولكنهم لم يتحركوا:

- أتركنا نبقى هنا بعض الوقت...

كانوا صامتين، ينظرون برصانة وانبهار إلى تتابع مناظر هذا السرّ العظيم. إن ما يتدحرج هكذا خارج بطن الجبل هو الحياة، إنها دماء الإنسان نفسه. إن منسوب ثانية واحدة من هذه المياه سيحيي قوافل بأكملها، تلك التي تكاد تموت عطشا، بعد أن غرقت إلى الأبد في لانهائية بحيرات الملح والسراب. إن الربّ يتجلى فوق هذه الأراضي: فلا يمكن تجاهله. يفتح الربّ منابع مياهه ويظهر عظمته: وقف العرب الثلاثة مشدوهين.

- تعالوا... ماذا سترون بعد هذا؟

- يجب الانتظار.

- ماذا ستنتظرون؟

- النهاية.

يريدون انتظار اللحظة التي يتعب الربّ من جنونه. يتوب بسرعة، إنه بخيل.

- ولكن هذه المياه تسيل منذ ألف سنة...

هكذا، في هذا المساء، لم يلحّوا حول الشلال. من الأفضل غض النظر عن بعض المعجزات. بل من الأفضل عدم التفكير فيها طويلا وإلا سوف لن فهم شيئا. وإلا سنشك في قدرات وعدالة الربّ...

- إن ربّ الفرنسيين، مثلما ترى...

ولكنني أعرفهم، أصدقائي المتوحشين. لقد تزعزع إيمانهم هنا، أصيبوا بارتباك، وهم الآن مستعدون للخضوع. يحلمون بتمويل فرنسا لمخازنهم بالشعير وتكفل قواتنا في الصحراء بضمان أمنهم. صحيح أنهم سيربحون ماديا إن هم خضعوا.

ينحدر الثلاثة من قبائل المأمون، أمير ترارزا (أظن أنني أخطأت في الاسم).

عرفت هذا الأخير حينما كان يتعامل معنا. كان يُدعى إلى الاحتفالات الرسمية إكراما له على الخدمات التي قدّمها، ساعدته الحكومات المتعاقبة على جمع ثروة كبيرة، فأصبحت قبائل البدو تحترمه وتخشى جانبه، فلا يخصه شيء على ما يبدو من الخيرات الظاهرة. ولكن ذات ليلة، ودون إشارات سابقة تعلن تقلبه، قتل الضباط الذين كانوا يرافقونه في الصحراء، استحوذ على الجمال والبنادق والتحق بالقبائل المتمردة.

نسمي خيانة عظمى هذه الحركات التمردية المفاجئة، هذا الهروب الذي يمزج بين البطولة واليأس، قام به قائد أصبح منفيا ومطاردا في الصحراء، هذا المجد القصير الذي سينطفئ قريبا تماما مثل شهاب، على عمود الإعدام أمام مفرزة "عطار" المتحركة. ونندهش لمثل هذه الأفعال المجنونة.

ومع ذلك، كان تاريخ المأمون شبيها بتاريخ كثير من العرب الآخرين. أدركته الشيخوخة. وحينما تدرك الشيخوخة رجلا، يكثر من التأمل. هكذا، سيكتشف ذات مساء أنه خان إله الإسلام وأنه دنّس يده حينما أبرم مع النصارى عقدا خسر فيه كل شيء.

بالفعل، ماذا يعني بالنسبة إليه الشعير والسلم؟ أصبح فارسا مخلوعا وراعي إبل، وها هو يتذكر أنه سكن الصحراء يوما حيث كانت كل حفرة رملية غنية بالتهديدات التي تخفيها، وكان المخيّم المنصب للراحة الليلية يوزّع الحراس حوله، ويجتمع الباقي حول النار ليتبادلوا قصص تحركات العدو التي تزيد القلوب خفقانا وتحمسا للفعل البطولي. يتذكر طعم عرض البحر، إن حدث وتذوقه الإنسان فلا ينسيه أبدا.

وها هو اليوم يهيم على وجهه بلا مجد في الفيافي الشاسعة الخاضعة للسلم، مفروغا من أية هيبة. اليوم فقط، أصبحت الصحراء قفارا.

ربّما كان يبجّل الضباط الذين قتلهم. ولكن حب الله يسبق كل اعتبار.

- ليلة سعيدة، مأمون.

- حفظك الله.

تكوّر الضباط في أغطيتهم، متمددين على الرمل، كما لو أنهم فوق مركب، مقابل النجوم. ها هي جميع النجوم تدور ببطء في سماء تؤشّر كلها على الوقت. ها هو القمر يميل باتجاه الرمال التي حولها بحكمته إلى عدم. قريبا سينام النصارى. دقائق أخرى إضافية وستلمع النجوم بمفردها. لكي نعيد المجد السابق لهذه القبائل المنحطة، وتتواصل تلك المطاردات التي لولاها لبهت نور الصحراء، فتكفي صيحة أولئك النصارى الضعيفة التي ستُخنق في نومها الخاص... ثواني قليلة إضافية، ومن توبة هذا العميل العجوز، سيولد عالم آخر...

فتمّ قتل الضباط النائمين الوديعين.

**5**

في جوبي، دعاني اليوم كمال وأخوه وشربت الشاي بداخل خيمتهما. ينظر إليّ "مويان" بصمت وتحفظ متوحش، الخمار الأزرق على شفتيه. وحده كمال يحدثني ويشرفني بالضيافة:

- خيمتي وجمالي ونسائي وعبيدي كلهم في خدمتك.

انحنى مويان باتجاه أخيه، دون أن ينزع عني بصره، تلفظ ببضع كلمات ثمّ عاد إلى صمته.

- ماذا يقول؟

- يقول: "سرق بونافوس ألف جمل من قبيلة "رقيبات".

إنني لا أعرف النقيب بونافوس، هذا الضابط المهاري المنتمي إلى مفرزة عكار. ولكنني أعرف قصته الخرافية عبر حكايات العرب البدو. يتحدثون عنه بغضب دفين، ولكن برهبة مثلما يفعلون مع ربّ من الأرباب. يمنح حضوره ثمنا للرمل. اليوم أيضا، لا نعرف كيف انبثق من خلف القبائل الغازية التي كانت تمشي باتجاه الجنوب، وسرق جمالها بالمئات، وأجبر رجالها على مطاردته كي ينقذوا كنوزهم التي اعتقدوها في أمن. الآن وبعد أن أنقذ عطار، ها هو يجلس مثل رئيس الملائكة، بعد أن نصّب خيمته على هضبة كلسية عالية، يقف مستقيما مثل رهان عصيّ الإمساك، ويمتد شعاعه حواليه بحيث يجبر القبائل على الزحف باتجاه سيفه.

تفرّسني مويان بنظرة قاسية ثمّ تكلم.

- ماذا يقول؟

- يقول: "سننطلق إذا في غزوة ضد بونافوس. ثلاثمائة بندقية."

توقعت حدوث شيء ما. هذه الجمال التي تساق إلى البئر منذ ثلاثة ايام، هذه المحادثات، هذا الحماس. يبدو أنهم يجهزون سفينة غير مرئية. وبدأت الرياح التي ستدفعها تلف المكان. بسبب بونافوس تصبح كل خطوة باتجاه الجنوب خطوة غنية بالمجد. لم أعد أميّز ما يخفيه مثل هذا الذهاب من حب أو من حقد.

ما أفخر أن نملك في مكان ما من العالم عدوا جميلا مثل هذا لنقتله. أين كان المكان الذي يظهر فيه، تفكّك القبائل القريبة خيامها، تجمع جمالها وتهرب، خوفا من لقائه وجها لوجه، ولكن القبائل البعيدة أصابها دوار أشبه بدوار الحب. ينجذب الرجال من دفء الخيام، من عناق النساء، من النوم السعيد، ليكتشفوا بأن لا شيء في العالم أفضل من الوقوع، صدفة، عند الفجر، بعد شهرين من المشي المضني باتجاه الجنوب، تحت العطش الحارق، والانتظار في وضعية إقعاء تحت الرياح الرملية، على مفرزة عطّار المتنقلة، وهناك، إذا شاء الله، التمكن من القضاء على بونافوس.

اعترف كمال:

- بونافوس قوي.

أعرف الآن سرّهم. تماما مثل أولئك الرجال الذين يرغبون في امرأة ويحلمون بخطواتها غير المبالية وهي تتنزه في الحديقة، يتقلبون طوال الليل في فراشهم، مجروحين، تؤججهم النزهة غير المبالية التي تتواصل في أحلامهم، إن خطوة بونافوس البعيدة تقلقهم. لقد ألّب القبائل الغازية ضده، هذا المسيحي الذي يرتدي ثياب أهل الصحراء، وهو على رأس مئاتين من القرصان العرب، فرفع لواء التمردّ في مكان يمكن لآخر رجل من حرسه الخاص أن يتخلّص من واجباته اتجاه فرنسا ويستيقظ من عبوديته، تائبا، ويقدّمه قربانا لربّه على الطاولات الصخرية، في هذا المكان حيث لا يحجمهم عن الفعل إلا مجده، وكذا ضعفه. في هذه الليلة، وسط نومهم العميق، يروح ويجيء غير مبالِ، وترن خطوته إلى غاية قلب الصحراء.

يتأمل مويان، ساكنا دائما في عمق الخيمة، مثل التضاريس السفلية للغرانيت الأزرق. وحدهما عيناه تلمعان، وخنجره الفضي الذي لم يعد لعبة. لقد تغيّر كثيرا منذ أن التحق بالقبائل الغازية. يحس بنبله الخاص مثلما لم يحدث له أبدا، ويسحقني بازدرائه. لأنه سيصعد باتجاه بونافوس، لأنه سينطلق عند الفجر، يدفعه حقد يملك كل مواصفات الحب.

مرّة أخرى ينحني باتجاه أخيه ويتكلم بصوت خفيض، وينظر إليّ.

- ماذا يقول؟

- يقول بأنه سيُطلق عليك الرصاص إن صادفك خارج الثكنة.

- لماذا؟

-يقول: "إنك تملك الطائرة وراديو "تي أس أف". لك بونافوس ولكنك لا تملك الحقيقة."

يتفرسني مويان، ساكنا في أشرعته الزرقاء، بأخاديدها التمثالية:

- يقول: "تأكل السلطة مثل الماعز، والخنزير مثل الخنازير. نساؤك يظهرن وجوههن بلا حياء: لقد رأى بعضهن. يقول: "أنت لا تصلي أبدا". يقول: "ما فائدة طائرتك وراديو تي أس أف وبونافوسك أن كنت لا تملك الحقيقة؟"

أعجبت بهذا العربي الذي لا يدافع عن حريته، ذلك أن الناس في الصحراء هم أحرار دائما، ولا يدافع عن كنوز ظاهرة، ذلك أن الصحراء عارية دائما، ولكنه يدافع عن مملكة سرية. في صمت أمواج الرمال، يقود بونافوس مفرزته مثل قرصان عجوز، وبفضله لم يعد مخيّم رأس جوبي ملاذا لرهبان لا شغل لهم. تزن عاصفة بونافوس ضد جانبه، وبسببه نشدّ الخيام مساء. كم مؤلم الصمت في الجنوب: إنه صمت بونافوس. ويسمعه الصياد العجوز مويان يمشي وسط الرياح.

حينما يعود بونافوس إلى فرنسا، سوف لن يبتهج أعداؤه بل سيبكون غيابه، كما لو أن ذهابه نزع لصحرائهم أحد أقطابها، ولجودهم قليلا من المجد، وسيقولن لي:

- لماذا يذهب، بونافوسك؟

- لا أعرف...

لسنوات طويلة، لعب حياته ضد حياتهم. شكّل قوانينه من قوانينهم. نام مسندا رأسه إلى أحجارهم. خلال مطارداته الأبدية، عرف مثلهم ليالي إنجيلية، مليئة بالنجوم والرياح. وها هو يظهر بذهابه أنه لم يكن يلعب لعبا جادا. غادر الطاولة غير مبالِ. فترك العرب يلعبون بمفردهم، ليفقدوا الثقة في جانب من جوانب الحياة التي يتجند فيها الرجال إلى النخاع. يريدون أن يؤمنوا به:

- هل سيعود هذا البونافوس؟

- لا أعرف.

سيعود، فكّر العرب. سوف لن ترضيه العاب أوروبا، ولا قمار الثكنات، ولا الترقيات، ولا النساء. سيعود مهووسا بنبله الضائع، إلى المكان الذي يجعل كل خطوة تؤثر على خفقان القلب، مثل خطوة باتجاه الحب. تصوّر أنه سيعيش مجرد مغامرة، وسيعثر هناك على الأساس، ولكنه اكتشف بقرف أن الثروات الوحيدة الحقيقية امتلكها هنا في الصحراء: مجد الرمال والليل والصمت، وطن النجوم والرياح. لو يعود بونافوس يوما، سينتشر الخبر في الليلة الأولى في بلاد التمرّد. في مكان ما من الصحراء، وسط قراصنته المائتين، سيعرف العرب أنه ينام. حينئذ ستقاد الجمال بصمت نحو البئر. سيحضّرون مؤن الشعير. يتأكدون من صلاحية البنادق، مدفوعين بهذا الحقد أو هذا الحب.

**6**

- أطلب منك أن تخفيني في الطائرة الذاهبة إلى مراكش...

كل مساء، في جوبي، يكرّر هذا العبد العربي دعاءه باتجاهي. بعد ذلك، وقد عبر عن رغبته لدفينة، يجلس القرفصاء ويعدّ الشاي. إنه مطمئن ليوم لأنه أسرّ بحلمه الكبير للطبيب الوحيد الذي اعتقد أنه سيشفيه، للربّ الوحيد الذي اعتقد أنه سينقذه. ينحني الآن فوق الإبريق، ويجتر صور حياته البسيطة، أراضي مراكش السوداء، ومنازلها الوردية، والأملاك الأولية التي نزعت منه. لا يلومني على صمتي، ولا على تأخري لإعطاء الحياة: لم أكن رجلا يشبهه، ولكن قوة يريد تحركها، شيء مثل ريح مساعدة، والتي ستهب يوما على قدره.

رغم أنني كنت طيارا بسيطا، رئيس المطار لشهور قليلة في رأس جوبي، لا أملك من ثروة إلا بناية خشبية مسندة إلى القلعة الأسبانية، وبداخل تلك البناية حوض وإناء ماء مالح وسرير قصير جدا، فلم أكن أتوهّم بامتلاكي نفوذ عظيم:

* - يا شيخ "باراك"، سنرى فيما بعد...

كل العبيد يسمون "باراك"؛ إنه يسمى باراك إذا. برغم أربع سنوات من الأسر، لم يستسلم بعد لوضعيته الجديدة: يتذكر بأنه كان ملكا.

- ماذا كنت فعل في مراكش يا باراك؟

لقد مارس في مراكش، حيث لا تزال تعيش زوجته مع أطفاله الثلاثة، مهنة رائعة:

- كنت قائد ماشية، واسمي محمد.

كان القياد يستدعونه:

- محمد، عندي ثيران أريد بيعها. ابحث عنها في الجبل.

يقول آخر:

- عندي ألف رأس من الغنم في السهل، قدها إلى الأعلى باتجاه المراعي.

هكذا، يتسلح باراك بعصا من غصن الزيتون ويتسيّد على هجرة الحيوانات. كان المسئول الوحيد عن شعب من النعاج، يبطئ أخفها بسبب ولادة الخرفان، وحاثا الكسالى على السير، يمشي في ثقة وطاعة الجميع. يعرف وحده مقصد الأراضي الخصبة التي يصعد إليها، كما يعرف قراءة طريقة في النجوم، مثقلا بعلم لا يتقاسمه مع النعاج، يقرّر بمفرده، في حكمته، إعلان ساعة الراحة، ساعة السقي. وكان باراك، الطبيب والنبي والملك، يدعو لشعبه، واقفا وسط الليل، مشفقا على هذا الكم من الضعف المجهول، غارقا في الصوف إلى غاية الركبتين.

ذات يوم، اتصل به البدو الرحل:

- تعالى معنا نبحث عن الماشية باتجاه الجنوب.

مشى معهم طويلا. بعد ثلاثة أيام، أدخلوه في درب جبلي، على حدود المناطق المتمردة، قبضوا عليه وسموه باراك ثمّ باعوه للنخاسين.

أعرف عبيدا آخرين. كنت أذهب كل يوم لشرب الشاي تحت الخيام. أتمدّد هنا، حافي القدمين، على سجاد من الصوف الجيد الذي يعتبر رفاهية البدوي الوحيدة، والذي يؤسّس عليه مأواه لساعات قليلة، أذوق طعم سفر اليوم. في الصحراء، نحسّ بسريان الوقت. تحت حرارة الشمس، نسير نحو المساء، نحو هذه الريح الرطبة المنعشة التي تبلل الأطراف وتغسل العرق. تحت حرارة الشمس، يتقدم البشر والحيوانات نحو ذلك الحوض المائي، كما لو أنهم يسيرون باتجاه الموت. لذلك، فالراحة ليست عديمة الجدوى أبدا. ويبدو كل يوم جميلا مثل تلك الطرق التي تذهب باتجاه البحر.

أعرفهم جيدا هؤلاء العبيد. يدخلون إلى الخيمة حينما يكون السيّد قد أخرج من صندوق الكنوز الموقد والإبريق والكؤوس، ذلك الصندوق الثقيل بأشياء خربة، أقفال بلا مفاتيح، أواني أزهار بلا أزهار،مرايا صَدآء ومشققة، أسلحة قديمة، ويبدو الكل المتناثر فوق الرمل مثل بقايا غرق سفينة رمت بها الأمواج إلى الشاطئ.

عندئذ، عبّأ العبد الأبكم الموقد بعيدان جافة، نفث على الجمر، ملأ الإبريق، مستعينا في كل هذا العمل، المناسب لطفلة صغيرة، بعضلات تقلع جذور شجرة أرز. يبدو هادئا. إنه منشغل باللعبة: إعداد الشاي، العناية بالجمال، الأكل. تحت قيظ النهار يمشي باتجاه الليل، وتحت جليد النجوم العارية يتمنى قيظ النهار. سعيدة هي بلدان الشمال التي تشكل فيها الفصول خرافة الثلج صيفا، وخرافة الشمس شتاءً، حزينة هي البلدان الاستوائية حيث لا يتغيّر شيء بداخل ذلك الحمّام الفائر، ولكن سعيدة هي الصحراء حيث يرمي الليل والنهار الناس من أمل إلى آخر.

أحيانا، يقرفص العبد الأسود أمام الباب ليسلّم نفسه لريح المساء. تكاد الذكريات تندثر من الجسد الثقيل لهذا الأسير. بالكاد يتذكر ساعة الاختطاف، وتلك الضربات وتلك الأيدي التي أسقطته أرضا في الليلة الدامسة وصراخه المستغيث. منذ تلك الساعة، غرق في سبات غريب، محروما مثل العميان من أنهار السنغال الهادئين، ومن المدن البيضاء لجنوب المغرب، محروما من الأصوات الأليفة كما الأطرش. إن هذا الأسود ليس شقيا، إنه معاق. لقد سقط يوما في زوبعة حياة البدو الرحل وارتبط بترحالهم الدائم، مقيدا مدى الحياة إلى الحبوب التي يصفونها له في الفيافي، بِمَ سيحتفظ من الآن فصاعدا من هموم مشتركة مع ماض ببيت دافئ وزوجة وأطفال يعتبرهم في عدد الموتى؟

إن الذين يُحرمون من حب أدفأ أيامهم لمدة طويلة ييأسون أحيانا من نبل عزلتهم. فيقتربون خاشعين من الحياة، وقد يصنعون سعادتهم من حب رديء. لقد وجدوا الوداعة في الخضوع، في تقمص شخصية العبد الذليل، والاندماج في سكون الأشياء. قد يصنع العَبد كبرياءه من جمر سيّده.

أحيانا يقول السيّد للأسير:

- خُذ، هذا لك.

إنها الساعة التي يكون فيها السيّد طيبا مع عبده بسبب سكون جميع الأوجاع وجميع الانتكاسات، بسبب هذا الولوج المشترك، جنبا إلى جنب، في الرطوبة المنعشة. ويسمح له بكأس شاي. ومن أجل كأس الشاي هذا، يُقبِّل الأسير المُثقل بالاعتراف ركبتي سيّده. ليس العبد بحاجة إلى سلاسل تُقيِّده، سواء لم يكن بحاجة إليها، أو كان وفيا، أو أنكر بحكمته الداخلية الملك الأسود المخلوع: ليس إلا أسيرا سعيدا.

ومع ذلك، سيُعتَق ذات يوم. حينما يصير عجوزا لا يقدر على تحضير أكله وخيط ملابسه، ستمنح له حرية مبالغ فيها. ولمدّة ثلاثة أيام، سينتقل من خيمة إلى أخرى، عارضا خدماته، يضعف كل يوم أكثر، وعند مساء اليوم الثالث، تمدّد بهدوء على الرمل ونام. في جوبي، رأيت هكذا بعضهم يموتون عراة. يرافق العرب احتضارهم الطويل، ولكن بلا قسوة، فيما يلعب أطفالهم الصغار بقرب الحطام الداكن، وعند كل فجر، يركضون لرؤية إن كانت الجنة لا تزال تتحرّك، دون أن يهزأوا من العبد العجوز. يدخل هذا ضمن طبيعة حياتهم. كما لو أنهم قالوا له: "لقد اشتغلت جيدا، فمن حقك أن ترتاح، فنَم قرير العين". كان العبد الممدَّد يشعر بالجوع الذي يعصر أحشاءه أكثر مما يشعر بالظلم الذي نغص حياته بكاملها. فكان يمتزج بالتراب شيئا فشيئا. جفّفته الشمس واستقبله التراب. ثلاثون سنة من الخدمة وأخيرا حان حق النوم والعودة إلى التراب.

إن أوّل من صادفته في طريقي لم أسمعه يتأوّه: لم يكن لديه من يتأوّه ضده. أدركت أن بداخله نوعا من الرضا الغامض، رضا الجبلي التائه، وهو منهار القوى، والذي يتمدّد على الثلج، ويتدثّر بأحلامه وبالثلج. إن ما أربكني ليست آلامه. لا أعتقد بوجودها. ولكن بداخل موت رجل، يموت عالم مجهول، وأنا أتساءل عن ماهية الصور التي غرقت معه. ما هي مزارع السنغال، ما هي المدن البيضاء لجنوب المغرب التي تغرق رويدا رويدا في النسيان. لا أعرف إن كانت تنطفئ بداخل هذه الكتلة السوداء تلك الانشغالات البائسة فقط: تحضير الشاي، أخذ الحيوانات إلى البئر...، أم تنام روح عبد، أم أن الرجل يموت في عظمته بعد أن يكون قد أعاد ذكريات مجده إلى الحياة. بدت لي عظام الجمجمة الصلبة أشبه بصندوق كنز قديم. لا أعرق ما هي أنواع ألوان الحرير، وما هي صور الأعراس، وما هي الآثار الخربة، بلا أية منفعة في هذه الصحراء، تكون قد نجت من الغرق. كان هذا الصندوق هنا، مقفلا وثقيلا. لا أعرف ما جزء العالم الذي يتفتت في هذا الرجل خلال النوم العملاق للأيام الأخيرة، يتفتّت في داخل هذا الوعي، بداخل هذا الجسد الذي يتحوّل شيئا فشيئا إلى عتمة وإلى جذور.

- كنت قائد ماشية، واسمي محمد...

كان باراك، الأسير الأسود، أول من يقاوم ممن عرفتهم. ليس بالشيء الكثير أن يكون البدو الرحل قد اغتصبوا حريته وصيّروه بين عشية وضحاها عار في هذه الدنيا مثلما ولدته أمه. هناك عواصف ربانية تخرّب هكذا في ساعة محصول رجل. ولكن أعمق من التهديد بسلب خيراته المادية، فإن العرب يهدّدون بمسخ شخصيته. ولم يستسلم باراك، فيما كان آخرون سيتركون بسهولة قائد ماشية بئيس، يشقى طوال السنة لكسب رزقه، يموت بداخلهم.

لم يستقر باراك في العبودية مثلما يستقر المرء في سعادة رديئة يأسا من الانتظار. لم يرد أن يحوّل طيبة سيّد العبيد إلى سعادة للعبيد. يحتفظ لمحمد الغائب بذلك المنزل الذي أسكنه محمد في صدره. ذلك المنزل الحزين لأنه فارغ، ولا يسكنه شخص آخر. يشبه باراك ذلك الحارس الذي مات من الوفاء وسط طحلب الأروقة وضجر الصمت وقد أدركه الشيب.

لم يقل: "أنا محمد بن الحسين"، وإنما: "اسمي محمد"، حالما باليوم الذي يعود هذا الشخص إلى الحياة ليطرد مظهر العبد بمجرد بروزه. أحيانا، في صمت الليل، تعاد إليها جميع ذكرياته، بصفاء نشيد طفلي. قال لنا مترجمنا العربي: "في وسط الليل، نعم في وسط الليل، تكلّم عن مراكش وبكى". في خضم العزلة، لا أحد يتهرّب من هذه الاستعادات. يستيقظ الآخر بداخله دون سابق إخطار، يتمدّد في أطرافه، يبحث عن المرأة في جانبه، في هذه الفيافي التي لم تقترب امرأة أبدا من باراك. يسمع باراك إلى خرير مياه الينابيع، في هذا المكان الذي لم تنفجر فيه مياه ينبوع أبدا. يغمض باراك عينيه ويتخيل بأنه يسكن منزلا أبيض اللون، يجلس كل ليلة تحت النجمة نفسها، هنا حيث يسكن الناس بيوت شعر ويطاردون الريح. يتقدّم باراك نحوي، مثقلا بعواطفه القديمة المتأججة بشكل غريب كأنها قادمة على بعد خطوات فقط. يريد أن يقول لي بأنه جاهز، بأن جميع عواطفه جاهزة، ولم يبقَ لتوزيعها إلا الرجوع إلى بيته. وتكفي إشارة مني. يبتسم باراك، يشير لي إلى الشيء التي لم أفكر فيه بعد:

- غدا طائرة البريد... أخْفِني بداخلها إلى غاية أغادير...

- ما أشقاك، باراك...

لأننا نعيش في حالة استنفار مع القبائل المتمرّدة، فكيف أساعده على الفرار؟ سوف لن ينتظر العرب نهار الغد لينتقموا الله أعلم أي مجزرة ليثأروا من هذه الإهانة لهم. حاولت شراءه، بمساعدة ميكانيكي مركز المهبط، لوبرغ، مارشال وآبغرال، ولكن العرب لا يصادفون كل يوم أوربيا يبحث عن عبد. أفرطوا في رفع السعر.

- عشرون ألف فرنكا.

- أتهزأ بنا؟

- أنظر إلى ذراعيه القويين...

ومرّت شهور على هذا النحو.

أخيرا، انخفضت مزاعم العرب، وبعد مساعدة بعض أصدقاء من فرنسا كتبت لهم، رأيت أن بمقدوري شراء باراك العجوز.

كانت مفاوضات عسيرة. دامت ثمانية أيام. قضيناها جالسين على الرمل، في شكل دائرة، خمسة عشر عربا وأنا. ساعدني في السر أحد قطاع الطرق، زين ولد رحطاري، صديق المالك وصديقي أيضا. كان يقول له مكررا توصياتي السرية:

- بِعْه، فإنك ستخسره في نهاية المطاف. إنه مريض. لا يظهر المرض الآن، إنه بداخله. سيأتي يوم ينتفخ فيه المرض ضربة واحدة. بعه بسرعة إلى الفرنسي.

وعدت قاطع طريق آخر اسمه راجي بمكافأة إذا ساعدني على إتمام العقد، وكان راجي يغري المالك:

- بالنقود ستشتري جمالا وبنادق وذخيرة. يمكنك إقامة غزوات كثيرة وإعلان الحرب ضد الفرنسيين. هكذا، ستعود من عطار بثلاث أو أربع عبيد أكثر شبابا وقوة. تخلذص من هذا العجوز بسرعة.

فباعوا لي باراك. أغلقت عليه بالمفتاح بداخل بنايتنا لمدة ستة أيام، لأنه لو حدث أن خرج قبل مرور الطائرة، من المحتمل جدا أن يخطفه العرب ويبيعوه في مناطق بعيدة.

ولكنني حرّرته من وضعية العبودية. أقمنا حفلا بهيجا. جاء الإمام والمالك السابق وإبراهيم، قايد جوبي. قبّله المنافقون الثلاث بحرارة، هم الذين لو صادفوه على بعد عشرين مترا من الثكنة لقطعوا رأسه بلا شفقة من أجل أن يلعبوا لي لعبة قذرة، فأمضينا عقدا رسميا.

- إنه ابننا الآن.

إنه ابني أيضا حسب القانون.

وقبّل باراك جميع آبائه.

عاش في بنايتنا أسراً لطيفا إلى غاية ساعة الذهاب. كان يصف لنفسه عشرين مرّة السفر البسيط: ينزل من الطائرة في أغادير، ويقتني تذكرة السفر بالحافلة على غاية مراكش. يَلعَب باراك دور الرجل الحر مثل طفل يلعب دور المستكشف: هذه المسيرة نحو الحياة، هذه الحافلة، هذه الحشود، هذه المدن التي سيراها ثانية...

اتصل بي "لوبيرغ" باسم "مارشال وآبغرال". لا ينبغي لباراك أن يموت جوعا عند نزوله من الطائرة. أعطوني ألف فرنكا له؛ هكذا يمكن باراك أن يبحث عن العمل.

حينها فكّرت في تلك السيّدات المسنات من الجمعيات الخيرية اللواتي "تتصدقن"، تمنحن عشرين فرنكا وتشترطن الاعتراف. أما لوبيرغ ومارشال وآبغرال، ميكانيكيو الطائرة، فإنهم يمنحون ألف فرنكا، لا يتصدقون ولا يشترطون أي اعتراف. كما أنهم لا يتصرفون باسم الشفقة، مثل تلك السيّدات المسنات اللواتي تحلمن بالسعادة. ببساطة، إنهم يساهمون فقط في إرجاع الكرامة الإنسانية المفقودة لرجل. يعرفون جيدا، مثلما أعرف أيضا، أن الصديقة الوفية الأولى التي ستحتضن باراك بعد مرور نشوة العودة هي البؤس، وأنه سيشقى شهورا في قلع اللجاف في مكان ما عبر طول السكك الحديدية. سيكون أقل سعادة مثلما كان بيننا في الصحراء. ولكنه يملك حق العودة إلى أهله.

- هيا يا شيخ باراك، اذْهب وكُن رَجُلا.

ارتفع هدير المحرك، معلنا عن موعد إقلاع الطائرة. انحنى باراك لآخر مرة باتجاه خراب رأس جوبي الكبير. أمام الطائرة، تجمّع مائتان من العرب كي يروا بأمّ عيونهم اللون الذي سيتخذه وجه عبد يقف عند أبواب الحياة. وفي حالة تعطّل الطائرة في مكان ما من الصحراء، أكيد أنهم لن يتردّدوا في استعباده من جديد.

وكنا نقوم بحركات الوداع باتجاه مَولودنا الجديد الخمسيني، المرتبك قليلا بسبب مغامرته نحو العالم.

- وداعا باراك...

- لا.

- كيف: لا؟

- لا. أنا محمد بن الحسين.

وصلتنا آخر أخبار باراك عن طريق العربي عبد الله الذي رافق –تحت طلبنا- نزوله في أغادير.

كانت حافلة مراكش مبرمجة في المساء، وبقي أمام باراك يوم كامل شاغر. في البداية، مشى طويلا في المدينة الصغيرة، دون أن ينبس بكلمة، إلى درجة حيّرت عبد الله، فسأله متأثرا:

- ماذا حدث لك؟

- لا شيء...

كان باراك عائما في الفضاء الشاسع لعطلته المباغتة، ولم يعِ جيدا بعودته الجديدة إلى حياة الحرية. كان يشعر بسعادة غامضة، ولكنه لم يجد فراقا، باستثناء هذه السعادة، بين باراك أمس وباراك اليوم. رغم أنه كان يتقاسم هذه الشمس بالتساوي مع الآخرين، وكذا حق الجلوس هنا تحت سقيفة هذا المقهى العربي. فجلس. طلب شايا له ولعبد الله. إنها أوّل حركة سيّد يقوم بها منذ زمن طويل؛ ربّما كانت تلك السلطة البسيطة ستغيّره. ولكن النادل سقاه شايا دون مفاجأة، كما لو أن الفعل كان عاديا. لم يكن يشعر أنه بهذا الفعل العادي لديه، كان يمجّد رجلا حرا. قال باراك:

- لنذهب إلى مكان آخر.

صعدوا إلى القصبة الواقعة في مرتفع يطل على المدينة.

تقدّمت نحوهما الراقصات البربريات الصغيرات. أظهرن اتجاهه ذلك اللطف المروّض بحيث أحس باراك أنه يعود إلى الحياة فعلا: استقبلته تلك الراقصات بداخل الحياة دون علم منهن. أمسكنه من اليد وسقين له الشاي بلطف مثلما يفعلن عادة مع زبائنهن. أراد باراك أن يحكي عودته إلى الحياة ثانية. كُنّ مسرورات لأنه كان مسرورا. أضاف لإبهارهن: "أنا محمد بن الحسين". ولكن ذلك لم يفاجئهن. جميع الرجال يملكون اسما، وبعضهم يعود من بعيد، من بعيد جدا...

بعد ذلك، جرّ عبد الله نحو المدينة. طاف أمام دكاكين اليهود، تأمل البحر، فكّر بأنه يستطيع المشي حسب هواه ونحو أي اتجاه، بأنه حرّ... ولكن بدت له تلك الحرية مرّة: أظهرت له بالأخص إلى أي حدّ فقد اتصاله بالعالم.

عندئذ مرّ طفل، فداعب باراك وجهه بلطف. ابتسم الطفل. لم يكن طفل سيّد يعامل بعناية خاصة. كان طفلا فقيرا هشا منحه باراك مداعبة. ويبتسم الطفل. وأيقظ الطفل "باراك" الذي أحسّ بنفسه تكتسي أهمية أكبر على وجه الأرض، بسبب طفل هش ردّ على مداعبة بابتسامة بريئة. بدا كما لو أنه استيقظ فعلا إلى الحياة، وبدأ يمش بخطى كبيرة وسريعة.

سأل عبد الله:

- عما تبحث؟

أجاب باراك:

- لا شيء.

ولكنه حينما كاد، في منعطف زقاق، يصطدم بمجموعة أطفال كانوا يلعبون، توقف. نظر إليهم بصمت. ثمّ ابتعد قليلا باتجاه الدكاكين اليهودية وعاد بذراعين محملين بالهدايا. انتفض عبد الله:

- أيها الأحمق، احتفظ بنقودك.

ولكن باراك لم يكن يسمع. برصانة، أشار إلى الأطفال بالاقتراب. امتدّت الأيدي الصغيرة نحو الألعاب والأساور والنعال المطرّزة بخيوط ذهبية. وكان كل طفل يسرع هاربا بمجرد الإمساك جيدا بكنزه.

انتشر الخبر في لمح البصر، فركض أطفال المدينة نحو باراك الذي ألبسهم نعالا ذهبية. وفي ضواحي أغادير أيضا، شاع الخبر بسرعة الريح، فقام الأطفال وصعدوا نحو هذا الربّ الأسود، صائحين، مُستغثين، يتشبثون بأسمال العبيد التي يتدثّر بها، يطالبون بقسطهم من الكنز. يتدحرج باراك نحو الإفلاس.

ظنّه عبد الله قد "جنّ من الفرح". ولكنني أظن أن باراك كان يريد اقتسام الفرح الزائد الذي ملأ صدره.

إنه حرّ ويملك بالتالي الخيرات الأساسية، الحق في الحب، الحق في المشي نحو الشمال أو الجنوب لكسب رزقه بالعمل. ما فائدة تلك الأموال، وهو يحسّ برغبة عارمة أشبه بشره الأكل عند الجائع ليكون رجلا بين الرجال، مرتبطا بالرجال. أظهرت راقصات أغادير لطفا إنسانيا اتجاه باراك العجوز، ومع ذلك فارقهُن بلا عناء، مثلما جاء إليهن؛ لم تكنّ بحاجة إليه. إنّ نادل المقهى العربي وهؤلاء المارة في الأزقة يحترمون فيه الرجل الحرّ، يتقاسمون معه شمسهم بالتساوي، ولكن لم يظهر أحدهم رغبة الحاجة إليه. كان حرا إلى درجة أنه يشعر بخفة قد تجعله يحلق مثل طير. ينقصه ثقل العلاقات الإنسانية التي تعيق المشي والدموع والوداع واللوم والفرح، كل ما يداعبه الإنسان أو يمزقه عند كل حركة يقوم بها، جميع هذه القيود التي تربطه بالغير وترجعه ثقيلا. ومع ذلك، بدا باراك مثقلا بآلاف الرغبات المستقبلية...

ويبدأ ملك باراك مع مجد الشمس الغاربة على أغادير، في هذه الرطوبة المسائية المنعشة التي كانت انتظاره الوحيد لسنوات طويلة، الملاذ الوحيد. ومع اقتراب ساعة الذهاب، يتقدّم باراك عائما وسط موجة الأطفال، مثلما كان يحدث له سابقا مع غنمه، يشق حرثه الأول في الكون. سيدخل غدا في بؤس ذويه، مسئولا عن أفواه عديدة، ربّما لا تقدر ذراعاه الضامرتان على إعالتها، ومع ذلك يشعر بنفسه هنا ملك مصيره ومصير ذويه. مثل قائد الملائكة الخفيف جدا بحيث لا يمكنه أن يعيش حياة البشر، ومن أجل ذلك، زوّر بوضع رصاص في حزامه، كان باراك يقوم بخطوات ثقيلة، يجذبه ألف طفل نحو الأرض، أطفال بحاجة ماسة إلى نعال ذهبية.

**7**

هكذا هي الصحراء. قرآن يغّير الرمال إلى إمبراطورية. في عمق صحراء قد تكون فارغة تمثّل مسرحية سرية تحرّك أهواء البشر. إن حياة الصحراء الحقيقية ليست متكوّنة من هجرات القبائل بحثا عن الكلأ، وإنما من الرهانات التي تلف فضاءاتها الشاسعة. ما الفرق بين مادة الرمال الخاضعة والأخرى المتمردة؟ أليس الأمر كذلك بالنسبة لجميع البشر؟ مقابل هذه الصحراء الممسوخة، أتذكر ألعاب طفولتي، والحديقة الداكنة والمذهبة التي ملأناها بالأسرار، حوّلنا هذا الكيلومتر المربّع غير المكتشف كليا إلى مملكة بلا حدود. شكّلنا حضارة مغلقة حيث تكتسي الخطوات طعما خاصا، كما تكتسي الأشياء معنى قد لا يوجد في أي مكان آخر. ماذا يبقى من تلك الحديقة المليئة بظلال الطفولة، الساحرة، الباردة، الحارقة، بعدما نكبر ونعيش تحت ظل قوانين أخرى، وحينما نعود إليها لا ندخلها، بل نطوف حول سورها الحجري الصغير، الخارجي، بنوع من اليأس، مندهشين بوجود مملكة ظنناها لا نهائية مغلقة، مدركين بعد فوات الأوان أننا سوف لن ندخل ثانية إلى ذلك الفضاء الساحر، لأننا كنا نلج داخل لعبة وليس داخل حديقة.

لم تعد مناطق رأس جوبي وسسنيروس وبويرطو-كانصادو والساقية الحمراء ودورا والسمراء مناطق تمرّد لأنها أضحت بلا أسرار. انطفأت الآفاق التي قصدناها الواحدة وراء الأخرى، مثل تلك الحشرات التي تفقد لونها بمجرد وقوعها في فخّ الأيادي الدافئة. ولكن الذي طاردها لم يكن لعبة أوهام. لم نخطئ حينما كنا نركض خلف تلك الاستكشافات. لم يكن سلطان ألف ليلة وليلة أيضا يطارد مادة فاتنة، حينما كانت أسيراته الجميلات ينطفئن بين ذراعيه، عند الفجر، الواحدة وراء الأخرى، حيث تفقدن بمجرد لمسهن ذهب أجنحتهن. تغذينا بسحر الرمال، ربما سيحفر آخرون آبار البترول وسيصبحون أثرياء. ولكنهم سيأتون متأخرين. لأن الواحات الممنوعة أو غبرة الأصداف البكر تكون قد سلّمت لنا أثمن كنوزها: سوف لن تمنح إلا ساعة سعادة وخشوع، ونكون قد جنينا هذه الثمار التي لا تقدّر بثمن.

الصحراء؟ حدث لي أن ولجتها يوما عن طريق القلب. في 1935، خلال طيران نحو الهند الصينية، وجدت نفسي في مصر، على الحدود الليبية، سجينا بداخل الرمال كما في بركة صمغ، وأحسست أن نهايتي حانت. ها كم حكايتي.

**7**

**في قلب الصحراء**

**1**

حينما دخلت البحر المتوسط صادفت غيوما منخفضة. هبطت إلى حوالي عشرين مترا. كانت الأمطار ترتطم بالزجاج الواقي وبدا البحر دخانا كثيفا. بذلت جهودا مضنية كي أميّز شيئا ما ولا أصطدم بسارية سفينة.

كان الميكانيكي "أندري بريفو" يُشعل لي سيجارة بعد أخرى.

- قهوة...

اختفى لحظة في مؤخرة الطائرة وعاد بالتَرمُس. شربت. من حين لآخر، أضغط على مقبض الغاز كي أُبْقي سرعة المحرك في ألفين وخمسمائة دورة. ألقيت نظرة خاطفة إلى العدّادات: الآلات طائعة وكل العقارب في مكانها. ألقيت نظرة إلى البحر الرازح تحت رذاذ قوي. كان يطلق بخارا كثيفا مثل قِدر كبير ساخن. لو كنت في طائرة مائية لانزعجت من تلك الأمواج "المحفورة". لكنني كنت في طائرة عادية. محفورة أم لا، لا يمكنني الهبوط. وكان ذلك يمنحني شعورا سخيفا بالأمن، أجهل سببه. ينتمي البحر إلى عالم غريب عني. إن التعطل هنا لا يخصني، لا يهدّدني: لست مجهّزا من أجل البحر.

بعد ساعة ونصف من الطيران توقف المطر عن السقوط. لا تزال الغيوم منخفضة، ولكن النور يخترقها مثل ابتسامة عريضة. أُعجب بهذا التحضير البطيء لصفاء الجوّ. أتخيّل فوق رأسي سمكا خفيفا من القطن الأبيض. انحرفت كي أتجنَّب حبا: لم يعد ضروريا عبور القلب. وها هو الشقّ الأول...

أحسست بهذا الشقّ دون أن أراه لأنني رأيت أمامي على البحر سحابة طويلة بلون المروج، بصورة واحة بلون أخضر ساطع وعميق، أشبه باخضرار حقول الشعير التي توقظ أحاسيسي في جنوب المغرب، حينما أصعد من السنغال بعد ثلاثة آلاف كيلومترا من الرمال. هنا أيضا أحسست أنني أقتحم إقليما آهلا بالسكان، فينتابني ابتهاج خفيف. ألتفت نحو "بريفو":

- أبشر... انتهى الخطر.

- نعم، انتهى الخطر.

تونس. أثناء مَلء خزان البنزين، وقّعت على بعض الأوراق. لكن في اللحظة التي غادرت فيها المكتب استمعت إلى صوت "بلوف" كمن يسقط في الماء، صوت أصم، بلا صدى. تذكرت لحظتها أنني استمعت إلى صوت مماثل: تفجير بداخل مرأب. قتلا رجلان في تلك السعلة الحادة. التفتت إلى الطريق المؤدي إلى أرضية الهبوط: قليل من الغبار المدخّن، اصطدمت سيارتان سريعتان، وجمدتا فجأة كأنهما بداخل جليد. يركض رجال باتجاههما، فيما ركض البعض الثاني باتجاهنا:

- النجدة... أهتفوا... الطبيب... الرأس...

شعرت بانقباض يلفني. في ضوء المساء الهادئ، ها هو القدر يضرب بقسوته. خراب جمال، ذكاء، حياة... هكذا سار القرصان في الصحراء، ولم يسمع أحد وقع خطاهم المطاطي على الرمال. بداخل المخيّم، انتشرت إشاعة غزوة للحظات. ثمّ عاد كل شيء إلى الصمت المذهب. السلم نفسه، الصمت نفسه... تحدّث أحدهم بقربي عن كسر في الجمجمة. لا أريد أن أعرف شيئا عن هذه الجبهة الساكنة والدامية، فأدرت ظهري للطريق والتحقت بطائرتي. ولكنني احتفظت بداخلي إحساسا بالتهديد. وهذا الصوت سأتعرف عليه بعد قليل. حينما كشطت طائرتي تلك الهضبة السوداء بسرعة مائتين وسبعين كيلومترا، تعرفت على السعلة الحادة نفسها: "حــاك" صوت القدر الذي ينتظرنا في الموعد.

هيا بنا إلى "بنغازي".

**2**

المسافة بعيدة. ساعتان إضافيتان نهارا. تخليت عن نظارتي السوداء حنيما أشرفت على إقليم طرابلس. وأضحت لرمال مذهّبة. إلهي، كم هو فارغ هذا الكوكب... مرّة أخرى، بدا لي أن الأنهار والظلال وسكنات البشر تخضع دوما لالتقاء الصدف السعيدة. ما هو جزء الصخر والرمل؟

ولكن بدا لي كل هذا غريبا، إنني أعيش في ميدان التحليق. أشعر باقتراب الليل حيث سننغلق بداخله كما بداخل معبد. حيث ننغلق في تأمل بلا نجدة لنمارس طقوسنا السرية الأساسية. سينمحي كل هذا العالم الدنيوي بعد قليل وسيختفي نهائيا. لا تزال كل هذه المناظر تتغذى بنور ساطع ولكن شيئا ما يتبخّر. ولا أعرف شيئا، فأقول: لا شيء له ثمن في هذه الساعة. وسيفهمني جيدا أولئك الذين جرّبوا حب الطيران الغامض.

شيئا فشيئا، تخليت عن الشمس. تخليت عن المساحات الشاسعة المذهبة الذي كانت ستستقبلني في حالة تعطل الطائرة. تخليت عن المعالم التي كانت ستوجهني. تخليت عن مظاهر الجبال المعتنقة للسماء التي كانت ستُجنِّبني الارتطام بصخورها الشامخة. ولجت في الليل. أبحر. لم أعد أملك إلا النجوم...

حدث موت العالم هذا ببطء. شيئا فشيئا، بدأ الضوء ينقصني. شيئا فشيئا، تداخلت السماء مع الأرض. صعدت الأرض وبدت كما لو أنها تنتشر مثل البخار. ترتجف النجوم الأولى كما لو أنها على مياه خضراء. ينبغي الانتظار طويلا كي أكون شاهدا للعبة النيازك الصامتة. في قلب بعض الليالي، رأيت شرارات عديدة تجري إلى درجة أنني اعتقدت فعلا أن ريحا قوية تصفّر وسط النجوم.

كان "بريفو" يجرّب المصابيح الثابتة ومصابيح النجدة. لففنا المصابيح بالورق الأحمر.

- زِد لفا ثانيا...

أضاف ورقة أخرى، لمس زرا. لا يزال الضوء شفافا جدا. مثلما يحدث عند المصوّر، سيحجب صورة العالم لخارجي الشاحبة. سيُخرّب اللب الخفيف الذي يلتصق أحيانا بالأشياء ليلا. خيّم الليل. ولكنه ليس ذلك الليل الحالك، الليل الفعلي. هناك في الفضاء الشاسع لا يزال هلال شاحب يطل علينا. ذهب بريفو إلى مؤخرة الطائرة وعاد بصندويتش. قضمت عنقود عنب. لست جائعا. لا أشعر لا بالجوع ولا بالعطش. كما أنني لا أحس بأي تعب. بدا لي أنني سأقود الطائرة هكذا لمدّة عشر سنوات.

انطفأ القمر.

ظهرت بنغازي في الليلة الحالكة. تقبع بنغازي في عمق ظلمة دامسة بحيث لا ينطلق منها أي نور. رأيت المدينة بعدما وصلت إليها. بحثت عن ميدان الهبوط، وها هي إشارات طريق الهبوط تشعل بالأحمر. حدّدت الأنوار مستطيلا أسود. انحرفت. تصاعد ضوء منارة موجه نحو السماء مثل دفعة مياه سيارات الإطفاء، استدار وسطّر على الميدان طريقا مذهبا. انحرفت قليلا كي أرى جيدا حواجز الميدان. بدت تجهيزات هذا المركز رائعة. أنقصت السرعة وبدأت الغطس كما لو كنت في مياه سوداء.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر ليلا حينما هبطت الطائرة، فدحرجتها اتجاه المنارة. تحت ضوء المصباح، انتقل الضباط والجنود المرحبين من الظلمة إلى النور، تارة مرئيين وتارة أخرى غير مرئيين. أخذوا أوراقي وطفقوا يملأون الخزان. سيرتّب عبوري في ظرف عشرين دقيقة.

- قم بدورة ومر فوقنا، وإلا سنجهل إن كان الإقلاع مرّ بسلام.

لنواصل الرحلة من جديد.

أتدحرج فوق هذا الطريق المذهب، باتجاه فجوة بلا حواجز. رغم ثقل حمولتها، أقلعت طائرتي، من نوع "سيمون"، قبل أن تستهلك النطاق الموفّر لها. كان المصباح يتبعني فوجدت صعوبة في الدوران. أخيرا أبعدوه عني، لقد أدركوا أن الضوء يبهرني. قمت بدورة على الطريقة العمودية، لمسني الضوء في الوجه من جديد، ولكنه ابتعد عني بمجرّد اللمس، موجها سهمه المذهب إلى وجهة أخرى. شعرت بلباقة مبالغة في هذه التدابير المجاملة. الآن، أنحرف أكثر باتجاه الصحراء.

لقد توقّعت مراكز الأرصاد الجوية لكل من باريس وتونس وبنغازي هبوب ريح خلفية من ثلاثين إلى أربعين كيلومترا في الساعة. كنت أعتمد على رحلتي على ثلاثمائة كيلومترا في الساعة. وجهت الطائرة في وسط خط اليمين الذي يربط إسكندرية بالقاهرة. هكذا سأتجنب المناطق الساحلية المحرّمة، ومهما كانت الانحرافات التي سأتعرض إليها، أكون معلقا، سواء على يميني أو على يساري، بأضواء واحدة أو أخرى من المدينتين، أو بأضواء سهل النيل عموما. إذا لم تتغير سرعة الرياح، سأحلق لمدة ثلاث ساعات وعشرين دقيقة. أما إذا خفتت سرعتها، سترتفع المدة إلى ثلاث ساعات وأربعين دقيقة. بدأت بالتهام ألف وخمسين كيلومترا من الصحراء.

غاب القمر. تمدّد إسفلت أسود إلى غاية النجوم. لا أرى نارا، وفي غياب الراديو، لن أسعف بأي إشارة من البشر قبل الوصول إلى نهر النيل. لا أحاول رؤية أي شيء سوى مِدْوري ومقبض القيادة. لا أهتم بشيء سوى بفترة التنفس البطيئة لخط رقيق من الراديوم على شاشة الآلة الداكنة. حينما يتحرّك "بريفو"، أصحّح ببطء تغيرات التركيز. أرتفع إلى علو ألفَين، لقد قيل لي بأن الرياح هناك مناسبة. من حين لآخر، أنير مصباحا كي أراقب مينا العدّادات المعروضة أمامي والتي ليست كلها مضيئة. ولكنني في غالب الأحيان، أنغلق بداخل العتمة، وسط كواكبي الصغيرة المتلألئة التي تشعّ نورا معدنيا كما النجوم، ذلك النور السري الذي لا يفنى، التي تتكلم لغة واحدة. أنا أيضا، وكما الفلكيين، أقرأ كتابا في الميكانيكا السماوية. أنا أيضا، أحسّ بنفسي مجتهدا وطاهرا. انطفأ كل شيء في العالم الخارجي. يوجد "بريفو" النائم بعد أن قاوم طويلا. أذوق طعم عزلتي أحسن. يوجد هدير المحرك اللطيف، وتقابلني على لوحة القيادة جميع تلك النجوم الهادئة.

ومع ذلك كنت أتأمل. لا نحظى بامتياز القمر وقد حرمنا من الراديو. سوف لن يربطنا مع العالم الخارجي رابط مهما كان ضئيلا إلى أن نصطدم بجبهتنا مع خيط ضوء النيل. إننا خارج كل شيء، وحده محرّكنا يعلقنا، محلقا بنا في هذا الفضاء الإسفلتي. عبرنا السهل الأسود الكبير للحكايات العجيبة، سهل التجريب. هنا لا مجال للنجدة. هنا الأخطاء لا ترحم. لقد سُلِّمنا إلى رحمة الله.

تسرّب خيط ضوء من نقطة في الجهاز الكهربائي. أيقظت "بريفو" كي يطفئه. تحرّك "بريفو" في الظلام مثل دبّ، ترنّح، تقدّم. انهمك في تدبير غامض من الورق الأسود والمنديل. اختفى خيط الضوء. لقد شكّل انكسارا في عالمنا. لم يكن من النوع نفسه لضوء الراديوم الشاحب البعيد. كان ضوء ملهى ليليا وليس ضوء نجوم. كان يبهرني خاصة ويمحي الأضواء الأخرى.

ثلاث ساعات من الطيران. انبثق على يميني ضوء بدا لي حيويا. نظرت. التصق خيط ضوئي طويل بمصباح طرف الجناح الذي بقي لي إلى تلك اللحظة غير مَرئي. كان ضوءا متناوبا، تارة قويا، وتارة أخرى خافتا. ها أنا ألج بداخل غيمة. هي التي كانت تعكس ضوء مصباحي. فضّلت سماء صافية بقربي معالمي. أضيء الجناح تحت الضوء المنعكس. استقر الضوء وتثبّت وتلألأ وشكّل باقة وردية. هزتني اضطرابات داخلية. أبحر في مكان ما بداخل بطن غيمة لا أعرف سمكها.ارتفعت إلى غاية ألفَين وخمسمائة ولم أتخلص منها. نزلت إلى ألف مترا. كانت باقة الورد لا تزال حاضرة، ساكنة، يَسْطع نورها أكثر فأكثر. طيّب. لا بأس. فليكن. أفكر في شيء آخر. سنرى الأمور بوضوح عندما نتخلص من هذا الضباب. ولكنني لا أحب ضوء الفندق الرديء هذا.

أقوم بعملية حسابية: "هنا أرقص قليلا، أمر طبيعي، ولكنني خضعت لاضطرابات طوال ساعات سفري برغم السماء الصافية وارتفاع العلو. لم تهدأ الرياح بعد، وأكون قد جاوزت سرعة الثلاثمائة كيلومترا في الساعة". مع كل هذه الحسابات فإنني لست متأكدا من شيء، سأحاول تحديد موقعي بعد الخروج من الغيوم.

وخرجنا. فجأة تبخّرت الغيوم وأنبأتني بالحادثة القادمة. نظرت أمامي ورأيت، كمن لم ير شيئا، أديما ضيقا من السماء وجدار الغيمة القادمة. عادت الغيوم إلى الحركة.

سوف لن أخرج من هذا الصمغ إلا لثوان قليلة. بعد ثلاث ساعات ونصف من الطيران، بدأ ينتابني القلق لأنني أقترب من النيل إذا كنت أسير في الاتجاه الذي ظننته. بقليل من الحظ، يمكنني رؤية مجرى النهر عبر الأروقة ولكنها ليست كثيرة. لم أجرؤ على الهبوط: إذا حدث أنني كنت أحلق بسرعة أقل مما كنت أتصوّر، فإن الأراضي هنا مرتفعة نوعا ما.

لم أكن قلقا بالمعنى الحقيقي، وإنما خشيت من ضياع الوقت فقط. ومع ذلك وضعت حدا لسكينتي: أربع ساعات وخمس عشرة دقيقة من الطيران. بعد هذه الفترة، حتى في حالة انعدم كلي للريح وهو أمر يكاد يكون مستحيلا، أكون قد تجاوزت سهل النيل.

حينما أشرفت على حواشي الغيوم، تلقيت من باقة أضواء النجوم نيرانا خاطفة تدفّقت بسرعة ثمّ انطفأت كلية. لا أحب هذه الاتصالات العددية مع عفاريت الليل.

مرقت نجمة خضراء أمامي، لامعة مثل منارة. هل هي نجمة أم منارة؟ كما لا أحب أيضا هذه الإنارة الخارقة للعادة، هذه النجمة الساحرة، هذه الدعوة الخطرة.

استيقظ "بريفو" وأنار مينا المحركات. دفعتهما، هو ومصباحه. أشرفت على هاوية بين غيمتين واغتنمت الفرصة للنظر إلى الأسفل. عاد "بريفو" إلى النوم.

لم يكن هناك شيء يُنظَر إليه.

أربع ساعات وخمس دقائق من الطيران. جاء "بريفو" وجلس إلى جانبيك

- من المفروض أننا قد وصلنا إلى القاهرة...

- أظن ذلك...

- هل هذه نجمة أم منارة؟

أنقصت قليلا من قوة المحرك، ربما هذا ما أيقظ "بريفو". إنه حساس جدا لجميع تغيرات هدير المحرك. بدأت هبطا بطيئا كي أحلق تحت كتلة الغيوم.

تفحصت خريطتي. على كل حال، سأنخفض إلى العلو الأدنى. هكذا سأتلقى من نافذتي نيران المدينة. ربما أكون قد تجاوزتها، ستظهر لي من جهة اليسار. أطير الآن تحت الغيوم. ولكنني أجانب غيمة أخرى تنزل إلى الأسفل على يساري. انحرفت كي لا أقع في شباكه، واتجهت نحو الشمال الشرقي.

تنحدر الغيمة أكثر فأكثر وتحجب لي كامل الأفق. لا يمكنني الهبوط أكثر. وصلت إلى الحد الأدنى. يشير العدّاد إلى علو 400 مترا، ولكنني أجهل الضغط هنا. انحنى "بريفو". صرخت له: "سأطير إلى غاية البحر، إذا اقتضى الأمر، سأنزل فوق البحر تفاديا للاصطدام".

لا شيء يدل على أنني لم أنحرف باتجاه البحر من مدّة. كانت الظلمة تحت الغيمة حالكة. اتكأت على نافذتي. أحاول قراءة ما يوجد في الأسفل. أحاول اكتشاف نيران، إشارات. كنت رجلا يبحث بداخل رماد. كنت رجلا يسعى لإيجاد جمرات الحياة في عمق موقد.

- منارة بحرية...

رأينا هذا الفخ المباغت في لحظة واحدة. يا له من جنون؟ أين كانت هذه المنارة الشبحية، هذا الاختراع الليلي؟ في الثانية التي انحنينا فيها أنا وبريفو كي نراها جيدا، على مسافة ثلاثمائة مترا تحت جناحي طائرتنا، حدثت الكارثة...

- آه...

أظن أنني لم أتلفظ بشيء آخر غير هذا. كما أظن أنني لم أشعر بشيء آخر غير فرقعة مهولة هزّت عالمنا في أسسه. اصطدمنا بالأرض بسرعة مائتين وسبعين كيلومترا في الساعة.

أظن أنني لم أنتظر شيئا آخر في الثانية الموالية غير النجمة القرمزية الكبيرة للتفجير الذي سيبتلعنا معا. لم نحس بعاطفة أخرى، بريفو وأنا. لم أكن أراقب بداخلي إلا انتظارا مفرطا، انتظار تلك النجمة الساطعة حيث سنغمى بداخلها في الثانية نفسها. ولكن لم تظهر تلك النجمة القرمزية. حدث نوع من الزلزال خرّب مقصورتنا، مقلعا النوافذ، لافظا القطع الحديدية على بعد مائة مترا، مالئا أذهاننا بهديره الأصم المروع. كانت الطائرة ترتجف مثل سكين غرس عن بعد على خشبة صلبة. وقد هزّنا هذا الغضب هزّا عنيفا. ثانية... ثانيتان... ترتج الطائرة دائما وكنت أنتظر بنفاذ صبر مريع أن يفجرها البنزين الباقي مثل قنبلة. ولكن الهزات التحتأرضية تواصلت دون الانتهاء بالتفجير النهائي. ولم أفهم شيئا لهذا العمل غير المرئي. لم أفهم هذا الزلزال، ولا هذا الغضب، ولا هذه المهلة اللانهائية... خمس ثواني... ستّ ثواني... فجأة، أحسسنا بنوع من الدوران، تلته صدمة لفظت سيجاراتنا من النافذة، مدمرا الجناح الأيمن، ثمّ لا شيء. لا شيء غير سكون جليدي. صرخت لبريفو:

- بسرعة... أقفز...

صرخ في الوقت نفسه:

- النار...

بخفة تدحرجنا من النافذة المقتلعة. كنا واقفين على بعد عشرين مترا. قلت لبريفو:

- هل أصبت بضرر؟

أجابني:

- لا، لا أشعر بضرر.

ولكنه كان يحكّ ركبته.

قلت له:

- إلمس جسدك جيدا... تحرّك... أقسم لي أنك لم تصب بكسور...

أجابني:

- لا شيء، إنها مضخة النجدة...

أنا، فكرت أنه سينهار فجأة، جسده مفتوح من الرأس إلى أسفل البطن، ولكنه كرّر قائلا وعيناه ثابتتان:

- إنها مضخة النجدة....

أنا، فكرت: ها هو قد جنّ، سيرقص...

أخيرا، أبعد نظره عن الطائرة التي نجت من النار، نظر إليّ وقال:

- لا شيء، إنها مضخة النجدة التي اصطدمت بركبتي.

**3**

إنها معجزة حقيقية أن لا نزال على قيد الحياة. مستعينا بمصباحي اليدوي، اقتفيت آثار الطائرة على الأرض. على بعد مائتين وخمسين مترا من مكان توقفها، عثرنا على قطع معوجة من الزنك والحديد، والتي لوثت الرمل على طول المسافة. سنعرف عندما تشرق الشمس أننا اصطدمنا بطريقة تماسية بمنحدر لطيف في أعلى هضبة صحراوية. في نقطة الصدام، تشبه الحفرة بداخل الرمل حفرة محراث. لم تسقط الطائرة، وإنما زحفت على البطن بغضب وحركات ذيل الزواحف. زحفت بسرعة مائتين وسبعمائة كيلومترا في الساعة. ربما ندين بحياتنا إلى تلك الأحجار السوداء المدورة التي تتكور بحرية على الرمل والتي شكّلت صينية كريات.

قطع بريفو التيار عن المراكم كي يتجنب حريقا متأخرا قد يحدث عن طريق

الشرارات الكهربائية. اتكأت على المحرك أفكر: أكون قد خضعت في العلو ولمدّة أربع ساعات وربع إلى ريح بسرعة مائة وخمسين كيلومترا في الساعة، كنت بالفعل مهزوزا. تكون الريح قد تغيّرت بعد التوقعات الجوية، وأجهل كلية الوجهة التي اتخذتها الطائرة. فكرت أنني ربما أكون قد ابتعدت بمسافة أربعمائة كيلومترا جنوبا.

جاء بريفو، جلس بقربي وقال:

- ما أروع أن نكون أحياء...

لم أجبه ولم أشعر بأي ابتهاج. انتابتني فكرة صغيرة ولكنها تكبر رويدا رويدا في ذهني وبدأت تقلقني وإن بخفة:

طلبت من بريفو أن يشعل مصباحه كي يشكل معلما، ثمّ مشيت في خط مستقيم، أمسك مصباحي الكهربائي في اليد. بحذر شديد، أنظر إلى الأرض. أتقدّم ببطء وأقوم بنصف دورة عريضة، أغيّر الاتجاه مرات عديدة. أنبش فوق الأرضية الرملية كما لو أنني أبحث عن خاتم ضائع. هكذا كنت أبحث قبل قليل عن الجمرة. أتقدّم دائما في العتمة، منحنيا على القرص الأبيض الذي أحركه. هذا هو... هذا هو... صعدت ببطء داخل الطائرة. جلست في المقصورة أفكّر. بحثت عن سبب للأمل ولم أجده. أبحث عن علامة تمنحها لي الحياة، ولكن الحياة لم تمنح لي أية علامة.

- بريفو، لم أر عود عشب واحد...

سكت بريفو، لا أعرف إن كان قد فهم قصدي. سنتحدث عن هذا الأمر عند ارتفاع الستار مع طلوع النهار. انتابني شعور بإرهاق كبير، فكّرت: "على بعد حوالي أربعمائة كيلومترا في قلب الصحراء". فجأة، قفزة على قدميّ:

- الماء...

لقد خرّب التفجير مخازن البنزين ومخازن الزيت. وكذلك مخازن المياه. شرب الرمل كل شيء. عثرنا على نصف لتر من القهوة بداخل ترمس مخرّب، وربع لتر من النبيذ الأبيض في عمق ترمس آخر. رشّحنا السائلين وخلّطناهما. كما عثرنا أيضا على برتقالة وقليل من العنب. ولكنني حسبت: "خمس ساعات من المشي تحت الشمس، في عمق الصحراء، ما فائدة هذه البقايا..."

اتخذنا أمكنتنا بداخل المقصورة ننتظر بزوغ الفجر. تمدّدت، شعرت برغبة في النوم. وأنا أغرق في غفوة هادئة، قمت بحوصلة مغامرتنا: إننا نجهل كلية الموقع الذي سقطنا فيه. لا نملك لترا واحد من أي مشروب. إن كنا في الخط المستقيم، سيعثرون علينا بعد ثمانية أيام، لا يمكن أن نأمل أقل من هذه المدّة، وتكون النجدة متأخرة. أما إذا انحرفنا كثيرا، سوف لن يعثروا علينا قبل ستة أشهر. لا يمكن الاعتماد على الطائرات: ستبحث عنا في مسفة ثلاث آلاف كيلومترا.

قال لي بريفو:

- آه، للأسف...

- لماذا؟ كان بإمكاننا معرفة نهاية أسرع...

ولكن لا ينبغي الاستسلام بسرعة. استعدنا حيويتنا أنا وبريفو. لا ينبغي اليأس من فرصة للنجاة مهما كانت ضئيلة، وقد يأتي الإنقاذ المعجز عن طريق الجوّ. كما لا ينبغي أيضا البقاء في نفس المكان، قد توجد واحة غير بعيدة من هنا. سنمشي اليوم كله. ثمّ نعود إلى طائرتنا. وسنسجل برنامجنا بحروف كبيرة على الرمل.

تكوّرت على نفسي وقرّرت النوم إلى غاية الصبح. وكنت سعيدا جدا بذلك النوم. لفني تعبي بحضور متعدّد. لست وحيدا في الصحراء، كان نصف نومي غاصا بالأصوات، بالذكريات والأسرار المهموسة. لم أشعر بالعطش بعد، كنت في أحسن ما يرام، أسلّم نفسي للنوم مثلما أسلمها للمغامرة. أمام الحلم يفقد الواقع هيمنته...

آه، كم كان الوضع مختلفا عندما جاء النهار.

**4**

أحببت الصحراء كثيرا. قضيت ليال مبحرا في سحرها. استيقظت وسط هذه الفيافي المذهبة حيث طبعت الرياح تموجاتها كما البحر. انتظرت الإنقاذ وأنا نائم على جناحي، ولكن اليوم يختلف الأمر تمام الاختلاف.

مشينا على طرف التلال المنحنية. تتشكّل الأرضية من الرمل المغطى كلية بطبقة واحدة من الأحجار السوداء اللامعة. بدت مثل قشرة حديد، وكانت كل القبب المحيطة بنا تلمع مثل الدروع الحديدية. وقعنا في عالم معدني. انغلقنل في منظر من الحديد. بعد أن اجتزنا القمة الأولى، ظهرت قمة أخرى مشابهة، غير بعيدة، لامعة وسوداء. مشينا نجرجر أقدامنا على الأرض كي نترك آثارا تساعدنا على العودة. نتقدّم مقابلين الشمس. ضد كل تفكير منطقي، قرّرت التوجه نحو الشرق، مع أن كل شيء يميل إلى التأكيد أنني اجتزت نهر النيل: الأرصاد الجوية، مدّة الطيران. ولكنني قمت بمحاولة قصيرة باتجاه الغرب، فشعرت بضيق عصي التفسير. لذلك أرجأت الغرب إلى الغد. وضحيت مؤقتا بالشمال الذي يؤدي إلى البحر. بعد ثلاثة أيام، حينما سنقرّر، في نصف هذيان، أن نهجر طائرتنا نهائيا ونمشي أمامنا إلى غاية السقوط، قصدنا الشرق أيضا. تدقيقا باتجاه شرق-شمال-شرق. وذلك ضد كل تفكير منطقي، وضد كل أمل أيضا. وقد اكتشفنا بعد نجاتنا أنه لم يكن سيسمح لنا أي اتجاه بالعودة. المسافة نحو الشمال بعيدة ولم نكن قادرين بسبب تعبنا أن نصل إلى البحر. مهما بدا الأمر عبثيا، فيظهر لي اليوم أن غياب أية إشارة كانت ستؤثر على اختيارنا، اخترت الشرق لأن هذا الاتجاه هو الذي أنقذ صديقي "غيومي" في جبال "الأند"، حيث بحثت عنه طويلا. فأضحى الشرق عندي، وبشكل غامض، هو اتجاه الحياة.

بعد خمس ساعات من المشي، تغيّر المنظر. بدا كما لو أن نهرا من الرمال يجري في السهل، فاتخذنا عمق هذا السهل. مشينا بخطى سريعة، كان علينا أن نبتعد أكبر مسافة ممكنة والعودة قبل سقوط الليل إذا لم نكتشف شيئا. فجأة توقفت:

- بريفو...

- ماذا؟

- الآثار...

منذ كم وقت نسينا ترك آثار خلفنا؟ إذا لم نعثر عليها، إنه الموت الأكيد.

عدنا أعقابنا منحنين قليلا باتجاه اليمين. حينما نبتعد بعض الوقت، ننحرف بتجاه يتقاطع مع اتجاهنا الأول، وحينئذ سنعثر على آثارنا التي سطرناها على الرمل.

بعد أن اكتشفنا آثارنا، واصلنا السير. ارتفعت الحرارة، ومعها ولد السراب. ولكنه لم يكن إلا سرابا أوليا. تشكلّت بحيرات كبيرة أمامنا، وحينما نقترب تختفي فجأة. قرّرنا اجتياز سهل الرمل والصعود إلى القبة الأكثر علوا كي ننظر بعيدا في الأفق. مشينا حوالي ست ساعات. بخطانا السريعة، نكون قد قطعنا خمسة وثلاثين كيلومترا. وصلنا إلى رأس تلك القبعة السوداء، فجلسنا بصمت. في الأسفل، يمتد السهل الرملي إلى فيافي من الرمال بلا أحجار، حيث كان نورها الأبيض الساطع يعمي العيون. على مدى البصر، امتد الفراغ. ولكن في الأفق، كانت ألعاب الأضواء تشكل سرابا أكثر إبهارا. قلاع ومآذن، كتل هندسية بخطور عمودية. أبصرت أيضا لطخة كبيرة سوداء أشبه بالعشب، تعلوها غيمة تبخّرت في النهار وسيعود في الليل. ما هو إلا ظل غيمة خفيفة عالية.

لم يعد مفيدا التقدم أكثر. لا تؤدي هذه المحاولة إلى أي مكان. ينبغي الالتحاق بالطائرة، ذلك المعلم الأحمر والأبيض الذي قد يراه رفاقنا الطيارين. رغم أنني لم أضع بصيص أمل في هذه الأبحاث، إلا أنها بدت لي الحظ الوحيد لإنقاذنا. خاصة أننا تركنا هناك آخر القطرات والتي ينبغي شربها حتما. يجب أن نعود كي نعيش. إننا سجناء هذه الدائرة الحديدية: استقلال عطشنا القصير.

من الصعب أن نعود إلى الوراء حينما نظن أننا نمشي نحو الحياة. ربّما يكون الأفق هناك خلف السراب ثريا بواحات حقيقية وقنوات مياه عذبة ومروج. ولكنني كنت على حق عندما رجعت إلى الوراء. ومع ذلك، بدا لي كما لو أنني أغرق حينما قرّرت العودة.

تمدّدنا قرب الطائرة. لقد مشينا أكثر من ستين كيلومترا. استهلكنا مخزوننا من السوائل. لم نتعرّف على شيء في الشرق، ولم يحلق أحد رفاقنا فوق هذا الإقليم. كم وقت سنُقاوم؟ بدأ العطش يؤرقنا...

أشعلنا نارا ضخمة باستخدام بقايا الجناح المخرّب. حضّرنا البنزين ولوحات المغنيسيوم التي تمنح بياضا ساطعا صلبا. انتظرنا أن يصبح الليل معتما كلية كي نشعل حريقنا... ولكن أين يكون الرجال؟

الآن، النيران لاهبة. ننظر بخشوع إلى فانوسنا يحترق في ليل الصحراء. ننظر إلى رسالتنا الصامتة المشعة تتلألأ في الليل الدامس. فكّرت بأن الرسالة تحمل معها حبا كبيرا إلى جانب نداء الاستغاثة المؤثر. نحن بحاجة إلى الشرب ولكن أيضا إلي الاتصال. لتشتعل نار أخرى في الليل، وحدهم البشر يمتلكون النار، فليجيبوا على ندائنا.

أرى عيون زوجتي. لا أرى إلا هذه العيون. تتساءل. كما أنني أرى عيون جميع الذين يكنون لي مودّة وصداقة. وتلك العيون تتساءل. تلومني جميع تلك العيون على صمتي. أجيب... أجيب... أجيب بكل قواي، لا يمكنني أن ألفظ في هذا الليل نارا أكثر لمعانا. قمت بكل ما استطعت أن أفعل. قمنا بكل ما استطعنا أن نفعل: ستون كيلومترا دون أن نشرب تقريبا. الآن سوف لن نشرب. هل الخطأ خطأنا إذا لم يكن باستطاعتنا أن ننتظر أكثر؟ هل كان علينا أن نجلس هنا هادئين نحتسي القليل النادر من السوائل المتوفرة لدينا؟ ولكن ابتداء من اللحظة التي لحست فيها عمق الإناء المعدني، تحركت ساعة في رأسي. ابتداء من اللحظة التي احتسيت فيها آخر قطرة، بدأت أتدحرج عبر منحدر وعر. ما بوسعي أن أفعل إذا جرفني الزمان مثل نهر غاضب؟ بكى بريفو. رتبت على كتفه. قلت لمواساته:

- إذا هلكنا، فقد هلكنا...

أجاب:

- هل تعتقد أنني أبكي لحالي...

هيه، طبعا، لقد اكتشفت هذه البداهة. لا يوجد شيء لا يطاق. سأتعلم غدا وبعد غد أنه فعلا لا يوجد شيء لا يطاق. لا أعتقد إلا قليلا في العذاب. اقتنعت بهذه الفكرة منذ مدّة. اعتقدت يوما أنني سأغرق، كنت مسجونا في مقصورة الطائرة ولم أتعذّب كثيرا. اعتقدت أحيانا أنني ارتطمت ضد صخرة ولم يظهر لي ذلك كحادث عظيم. هنا أيضا سوف لن أعيش الضجر واليأس. غدا، سأتعلّم هنا أشياء أخرى غريبة حقا. ويعلم الله أنني تخليت عن إسماع صوتي إلى أي بشر برغم ناري الضخمة المستغيثة.

"هل تعتقد أنني أبكي لحالي..."، نعم، نعم، هذا هو الذي لا يطاق. في كل مرّة أرى فيها هذه العيون المنتظرة، أشعر بحرق يوجعني. وتنتابني فجأة رغبة النهوض والجري بكل قواي. هناك، صراخ بالنجدة، صراخ بالغرق.

إنه انقلاب عجيب للأوار، ولكنني فكرت دوما بأن الأمور تسير بهذه الكيفية. ومع ذلك كنت بحاجة إلى بريفو كي أطمئن أكثر. هكذا إذا، سوف لن يعرف بريفو هو أيضا هذا الضجر أمام الموت، الذي مللنا من ترداده. ولكن يوجد شيء لا يطيقه، وأنا أيضا.

آه، إنني استسلم طواعية للنوم، لنوم ليلة أو قرن. إذا نمت فلا فرق بين ليلة أو قرن. يا له من سلم... وذلك الصراخ الذي سنطلقه هناك، تلك النيران الكبيرة من اليأس... لا أطيق صورتها. لا أطيق البقاء جامدا أمام الغرق. إن كل دقيقة صمت إضافية تزيد في عذاب من نحبهم. تَصاعَد بداخلي سعار كبير: لماذا تمنعني هذه السلاسل من الوصول في الوقت المناسب وإنقاذ أولئك الذين يغرقون؟ لماذا لا يحمل حريقنا صرختنا إلى طرف الدنيا؟ صبرا... إننا آتون... آتون... نحن المنقذون...

استهلك المغنيسيوم واحمرّت النار. لا يوجد أمامنا إلا كوم من الجمر، ننحني فوقه لنتدفأ. انتهت رسالتنا اللامعة الكبيرة. هل حركت شيئا ما في هذا العالم؟ هيه، إنني واثق بأنها لم تحرك شيئا في العالم. يتعلق الأمر بصلاة لم يقدّر لها أن تُسمع.

طيّب. سأذهب لأنام.

**5**

عند الفجر، استقينا من الأجنحة، مستعينين بخرقة بالية، عمق زجاج من الندى المخلوط بالدهان والزيت. كان طعمه مُقْرفا ومع ذلك شربناه. أفضل من لا شيء، لقد بللنا شفاهنا على الأقل. بعد هذه الوليمة، قال بريفو:

- من حسن الحظ أن المسدّس لا يزال بحوزتنا.

شعرت بنفسي عدوانيا، فاستدرت باتجاهه بفظاظة قبيحة. لا أمقت شيئا في هذه اللحظة مثلما أمقت لحظة الضعف هذه. أنا بحاجة ماسة إلى اعتبار أن جميع الأمور تُعاش بسهولة. يولد الإنسان بسهولة، ويكبر بسهولة. كما أنه من السهولة أن يموت بسبب العطش.

راقبْت "بريفو" بطرف العين، مستعدا لجرحه إذا اقتضت الضرورة من أجل أن يصمت. ولكن "بريفو" كلّمني بهدوء. عالج مسألة نظافة. باشر الموضوع كما لو أنه قال: "ينبغي غسل اليدين". لذلك فنحن متفقان. تأملت وضعنا بالأمس حينما وقع بصري على الغمد الجلدي. كانت أفكاري معقولة وغير محزنة. وحده الاجتماعي يكون محزنا. إنه عجزنا على طمأنة أولئك الذين نشعر بمسئولية اتجاههم. وليس المسدس.

إنهم لا يبحثون عنّا، أو بالأحرى، إنهم يبحثون عنّا في أماكن أخرى. ربّما في شبه الجزيرة العربية. على كل حال، سوف لن نسمع هدير أية طائرة قبل نهار الغد، حينما نكون قد غادرنا طائرتنا. سوف لن يثير فينا هذا المرور الوحيد والبعيد جدا عنا أي تأثير. كنا نقطتين سوداوين مختلطتين بآلاف النقاط السوداء في الصحراء المترامية، فلا نطمح إذا أن يرانا أحد. لا شيء يكون صحيحا من الأفكار التي سوف تنسَب إليّ في هذا العذاب. لن أستسلم لأي عذاب. سيُخيّل إلي أن المنقذين سيتحرّكون في كون آخر.

يتطلّب خمسة عشر يوما من البحث كي يُعثر في الصحراء على طائرة لا نعرف عنها شيئا في مسافة ثلاثة آلاف كيلومترا تقريبا: ربّما بحثوا عنا من طرابلس إلى الفرس. ومع ذلك واليوم كذلك، تراودني فكرة إمكانية إنقاذنا وإن كانت قليلة جدا، ذلك أنني لا أملك إمكانية أخرى. غيّرنا الخطّة، فقرّرت الذهاب بمفردي للاستكشاف. سيعدّ "بريفو" نارا ويشعلها في حالة زيارة، ولكن لن يزورنا أحد.

هكذا ذهبت إذا دون أن أعرف إن كنت سأجد القوة اللازمة للعودة. عادت إلى ذاكرتي ما كنت أعرفه عن صحراء ليبيا. تصل الرطوبة في الصحراء إلى 40 بالمائة، ولكنها تنزل هنا إلى 18 في المائة. وتتبخر الحياة مثل البخار. يعلّم البدر الرحل والمسافرون والضباط الاستعماريون أن الإنسان قد يبقى تسع عشر ساعة دون شرب. بعد الساعة العشرين، تمتلئ العيون بالضوء وتبدأ النهاية: إن مشي العطش صاعق.

ولكن ريح الشمال الشرقي، هذه الريح غير العادية خدعتنا، وخلافا لكل التوقعات فقد ألصقتنا على هذه الهضبة وتواصل خداعها لنا. ولكن ما هي المهلة التي تمنحها لنا قبل ساعة الأضواء الأولى؟

ذهبت إذا، فبدا لي كمن يمتطي زورقا صغيرا في المحيط.

ومع ذلك، وبفضل الفجر، بدا لي ذلك الديكور أقل كآبة. مشيت أولا ويدايّ في جيوبي كالمتجول في الحقل. بالأمس، نصبنا فِخاخا في فوهات بغض الجحور الغريبة، فاستيقظ الصياد الذي بداخلي. ذهبت أولا أتفقد الفِخاخ: كانت فارغة.

سوف لن أشرب الدم إذا. في حقيقة الأمر، لم أكن آمل ذلك.

إذا لم أصَب بخيبة أمل، في المقابل انْتابتي حيرة. بما تعيش الحيوانات في الصحراء؟ إنها أفناك، من جنس ثعالب الصحراء، آكلات لحوم بحجم الأرانب ولها آذان كبيرة. لم أقاوم رغبتي فاقتفيت آثار أحدها. فقادتني إلى ساقية رملية ضيقة حيث كانت آثار الأقدام شفافة فوق الرمل. أعجبت بالسعفة الجميلة التي تشكلها ثلاثة أصابع كمروحة. تخيلت صديقي يركض ببطء عند الفجر ويلحس قطرات الندى على الأحجار. هنا تتباعد الآثار: لقد جرى فنكي. هنا التحق به رفيق وركضا جنبا إلى جنب. هكذا كنت شاهدا على هذه الجولة الصباحية في ابتهاج غريب. أحب علامات الحياة هذه. فنسيت لمدّة قليلة أنني عطشان...

أخيرا وصلت إلى مخازن مؤن ثعالبي. تبرز نبتة صغيرة جدا بحجم حسائية وبأغصان محمّلة بحلازن صغيرة ذهبية اللون على سطح الأرض كل حوالي مائة مترا. عند الفجر، يذهب الفنك بحثا عن المؤن. وأصطدم هنا بسرّ طبيعي كبير.

لا يتوقف فنكي عند كل جَنْبة. تكون بعضها معبأة بالحلازن ورغم ذلك لا يتوقف عندها. كما يدور حول بعضها بحذر وينصرف. كما أنه يباشر بعضها دون تخريبها كلية. يجذب منها صدفتين أو ثلاثة، ثم يغيّر مطعمه.

هل يتسلى بعدم وضع حدّ نهائي لجوعه ضربة واحدة، كي يستمتع أكبر مدة ممكنة بنزهته الصباحية؟ لا أظن. تتناسب لعبته جيدا مع خطّة ضرورية. لو عمل الفنك على أخذ كل مئونته من الجَنبة الأولى، سيفرغها بعد يومين أو ثلاثة. هكذا، من جنبة إلى أخرى، سيقضي على مرعاه في أيام قليلة. ولكن الفنك لا يريد إحداث خلل على عملية الزرع. من أجل غداء واحد يتصل بمئات الأغصان، ولا يأخذ صدفتين متجاورتين في غصن واحد. تجري الأمور كما لو أنه واعٍ بالخطر. لم يأكل بلا أدنى حذر، سوف تندثر الحلازن. وإذا اندثرت الحلازن، ستندثر الأفناك.

أوصلتني الآثار إلى الجحر. ربما كان الفنك يسمعني، يرعبه طرق خطواتي. فقلت له: "يا ثعلبي الصغير، أنا في ورطة هالكة، ومع ذلك، لم أتردّد عن الاهتمام بمزاجك..."

وبقيت هنا أحلم، فبدا لي أنه يمكننا التأقلم مع جميع الأوضاع. إن فكرة الموت بعد ثلاثين سنة لا تنغص على أفراح إنسان. ثلاثون سنة، ثلاثة أيام... إنها مسألة أفاق.

ومع ذلك ينبغي نسيان بعض الصور...

الآن أواصل طريقي، وأشعر أن شيئا ما بداخلي يتغيّر مع التعب. إن لم يكن السراب موجودا فأخترعه...

- أووييي...

رفعت ذراعيّ صارخا، ولكن الرجل المتحرك لم يكن إلا صخرا أسود. بدا كل شيء حيويا في الصحراء. أردت إيقاظ هذا البدوي النائم، فتغيّر غبى جذع شجرة أسود. إلى جذع شجرة؟ فاجأني هذا الحضور، وأمعنت النظر حولي وانحنيت. أردت رفع غصن مكسّر: إنه من المرمر. وقفت ونظرت حولي؛ رأيت قطع مرمر أخرى سوداء. تتناثر غابة من العهود الغابرة ببقاياها المكسّرة على الأرضية الحجرية. انهارت مثل كاتدرائية تحت قوة عاصفة أصلية منذ أزيد من مائة ألف سنة. ودحرجت القرون هذه القطع من الأعمدة العملاقة المصقولة كقطع فولاذية جامدة، مزججة، بلون الحبر. أميّز عقد الغصون، أرى فتل الحياة، أعدّ حلقة الجذع. لقد أصيبت هذه الغابة التي كانت غاصة بالطيور والموسيقى بلعنة وحوِّلت إلأى ملح. وأشعر أن هذا المنظر عدواني اتجاهي. ترفضني هذه الدروع الحديدية التي تشكلها التلال المجاورة، وهذه البقايا الراسخة. ماذا أفعل هنا حيّا وسط هذه القطع المرمرية غير الفانية؟ أنا الفاني، أنا الذي سيتحلل جسمي ويتعفن، ماذا أفعل هنا في هذا الخلود؟

لقد مشيت منذ البارحة حوالي ثمانين كيلومترا. أحسست بالدوران، ربما بسبب العطش. أو بسبب الشمس. يلمع فوق هذه البراميل الذي تبدو مجمدة بالزيت. يلمع فوق هذا الصدف الكوني. لا يوجد هنا لا رمال ولا ثعالب. لا يوجد هنا إلا سندان عظيم. وأنا أمشي فوق هذا السندان. وأحس بالشمس تطن في رأسي. آه، هناك...

- أوووييي... أوووييي...

"لا يوجد شيء هناك، لا تنتفض، إنه الهذيان".

هكذا أحدّث نفسي، لأنني بحاجة إلى الاستنجاد بعقلي. يصعب عليّ رفض ما أرى. يصعب عليّ عدم الركض باتجاه تلك القافلة السائرة... هناك... أترى...

- أيها الأحمق، تعرف أنك مخترع هذه الرؤى.

- إذا لا يوجد في العالم شيء حقيقي...

لا شيء حقيقي سوى ذلك الصليب على بعد عشرين كيلومترا عني فوق التل. هذا الصليب أو هذه المنارة...

ولكن هذا ليس اتجاه البحر. إذا إنه صليب. طوال الليل وأنا أدرس الخريطة. كان عملي بلا فائدة لأنني أجهل موقعي. ومع ذلك كنت أنحني على كل العلامات التي تشير لي حضور الإنسان. في مكان ما اكتشفت دائرة صغيرة يعلوها صليب مماثل. استنجدت بالتعليق وقرأت: "مؤسّسة دينية". إلى جانب الصليب، رأيت نقطة حمراء. عدت مرّة أخرى إلى التعليق، وقرأت: "بئر دائمة". تلقيت صدمة كبيرة في القلب وقرأت ثانية بصوت مرتفع: "بئر دائمة... بئر دائمة... بئر دائمة..." ماذا تساوي قيمة علي بابا وكنوزه أمام بئر دائمة؟ على بعد قصير، لاحظت دائرتين أبيضين. قرأت التعليق: "بئر مؤقتة". كان ذلك أقل جمالا. وحولهما لم يكن هناك شيء. لا شيء.

ها هي مؤسستي الدينية. لقد نصّب الرهبان صليب كبيرا فوق التل كي يستنجد به التائهون. ولم يبق لي إلا أن أمشي باتجاهها. ولم يبق لي إلا الركض باتجاه الرهبان الدومينيكيين...

- ولكن لا يوجد إلا أديرة الأقباط في ليبيا.

- ... باتجاه هؤلاء الدومينيكيين الجادين, يملكون مطبخا جميلا رطبا بمربعات حمراء، وفي فناء الدير، مضخة رائعة صدئة. وتحت المضخة الصدئة، تحت المضخة الصدئة، لقد عرفتم ماذا يوجد هناك... تحت المضخة الصدئة توجد البئر الدائمة. آه، سيكون حفل حقيقي هناك عندما أدق الباب، عندما أجذب الجرس الكبير...

- أيها الحمق، إنك تصف منزلا ريفيا حيث لا توجد بها اجراس.

- ... عندما أجذب الجرس الكبير، سيرفع البواب ذراعيه نحو السماء وصاح: "أنت مرسول من السماء"، وسينادي جميع الرهبان. وسيسرعون للقائي. وسيحتفلون بي كما يفعلون مع طفل فقير. وسيدفعونني نحو المطبخ. ويقولون لي: "انتظر ثانية، ثانية واحدة يا ولدي... نركض جميعا إلى غاية البئر الدائمة..."

وأنا أرتجف من السعادة...

ولكن لا، لا أرغب في البكاء بسبب عدم وجود صليب فوق التل.ليست آمال الغرب إلا أكاذيب. انحرفت فورا باتجاه الشمال.

الشمال مملوء على الأقل بأناشيد البحر.

آه، عند اجتياز قمة الهضبة، سيتمدّد الأفق. ها هي أجمل مدينة في العالم.

- أنت تعرف جيّدا أنه سراب...

أعرف جيدا أنه سراب. لا يخدعني أحد، أنا. تتساءل إن رضيت أنا بالتوغل داخل السراب؟ إن رضيت أنا بلك الأمل؟ إن رضيت بحُب هذه المدينة المسنّنة والمزيّنة بالشمس؟ إن رضيت بالمشي في طريق مستقيم، بخطى خفيفة، لأنني لا أحسّ بتعبي، لأنني سعيد... يريفو ومسدسه، شيء يضحكني. أفضل نشوتي. أنا منتشِ. أموت عطشا.

أزال الغسق عني الأوهام. فتوقفت فجأة، خوفا من أن أكون قد ابتعدت كثيرا. عند الغسق، يتبخر السراب. تعرى الأفق من مضخته، من قصوره، من ثيابه الكهنوتية. أضحى أفق صحراء.

- لقد تقدّمت كثيرا. سيخيّم الليل بعد قليل، عليك بانتظار النهار، وغدا ستمحى آثار قدميك ولن تكون في أي مكان.

- لذلك فلم يبقَ إلا المشي أمامي... ما هي فائدة العودة؟ لا أريد القيام ثانية بتلك الحركة الاندفاعية كما لو أنني سأفتح، كما كنت أفتح ذراعيّ على البحر...

- أين رأيت البحر؟ سوف لن تصل إليه أبدا. ربما تجاوزت المسافة الفاصلة بينك وبينه أكثر من ثلاثمائة كيلومترا. ويريفو الذي يترقب قرب "السيمون". ربّما رأته قافلة ما...

نعم سأعود، ولكن قبل ذلك، سأنادي الرجال أولا:

- أوووييي...

إلهي، إن بهذا الكوكب بشر...

- أوووييي... يا بشر...

بحّ حلقي. فقدت صوتي. أحسست بالخزي وأنا أصيح بهذه الكيفية... ناديت مرة أخرى:

- يا بشر...

خرج صوت مفخّم ومدّعِ.

ورجعت.

بعد ساعتين من المشي، رأيت النار التي أشعلها بريفو الذي انتابه الرعب باحتمال عدم رجوعي. آه... لفتني لامبالاة قاتلة...

زائد ساعة من المشي... زائد خمسمائة مترا... زائد مائة مترا... زائد خمسين...

- آه...

وقفت مندهشا. غمر الفرح قلبي وقاومت العنف المتفجر بداخله. كان بريفو متكئا على المحرك، تحت أضواء النار، ويتحدّث مع عربيين. لم يرني بعد. إنه منغمس في سروره الخاص. آه... لو انتظرت مثله... أكون قد نجوت. صرخت بابتهاج:

- أوويي...

انتفض البدويان ونظرا باتجاهي. غادرهما بريفو وتقدّم وحده نحوي. فتحت ذراعيّ. أمسكني بريفو من المرفق، كنت على وشك السقوط. قلت له:

- أخيرا نجونا...

- ماذا تقول؟

- العربيان؟

- أي عرب ؟

- العربيان الموجودان معك هنا...

نظر إليّ بريفو بغرابة، فبدا لي كما لو أنه يسرّ إليّ بسرّ عظيم برغم عنه:

- لا يوجد أي عربي معي...

هذه المرة بلا شك سأبكي.

**6**

نعيش هنا منذ تسعة عشر ساعة بلا ماء، وماذا شربنا منذ مساء أمس؟ بضع قطرات من الندى عند الفجر. ولكن ريح الشمال الشرقي تسود دائما وتخفض قليلا سرعة تبخرنا. تساعد هذه الشاشة على تكوين الغيوم العليا في السماء. آه، لو تتدحرج إلى غاية مكاننا، آه، لو يسقط المطر. ولكن المطر لا يسقط أبدا في الصحراء.

- يريفو، لنمزق قماش مظلتنا إلى مثلثات. ونثبت هذه الصفائح القماشية على الأرض بالأحجار. إذا لم تغيّر الريح وجهتها، عند الفجر سنجمع الندى في أحد خزانات البنزين بعصر القماش.

صفّفنا الصفائح البيضاء الستة تحت النجوم. فكّك بريفو خزانا. ولم يبق لنا إلا انتظار طلوع النهار.

اكتشف بريفو وسط الأنقاض برتقالة معجزة. اقتسمناها. كم كانت فرحتي عظيمة، ومع ذلك فهي لا شيء تقريبا لأنني كنا بحاجة على عشرين لترا من الماء. تمدّدت قرب النار الليلية، نظرت إلى الفاكهة اللامعة وفكّرت: "لا يعرف البشر ماذا تعني برتقالة..." فكّرت أيضا: "أنا مقتنع بالهلاك القريب، ومع ذلك لم يمنعني هذا اليقين من متعة مص البرتقالة بشهية لا مثيل لها. إن هذه النصف برتقالة التي أمسكها بيدي جلبت لي واحدة من أعظم أفراحي في الحياة..." تمدّدت على ظهري، أمص الفاكهة، أعدّ النيازك. وها أنا ولمدّة دقيقة من أسعد البشر. وفكّرت أيضا: لا يمكن لامرئ إدراك العالم الذي يعيش فيه إذا لم يكن منغلقا شخصيا بداخله." اليوم فقط أفهم سيجارة وكأس نبيذ المحكوم عليه بالإعدام. لم أكن أستسيغ قبوله لذلك البؤس. ومع ذلك، يحس بمتعة لا حدّ لها. نتصوّر أن ابتسامة هذا الرجل نابعة من شجاعته. ولكنه يبتسم لأنه يتجرع كأس نبيذ. لا نعرف أنه قد غيّر آفاقه كلية، وأنه قد حوّل هذه الساعة الأخيرة إلى حياة إنسانية بأكملها.

جمعنا كمية لا بأس بها من الماء: حوالي لترين. انتهى العطش. نجونا، سنشرب الماء.

استقيت من خزاني محتوى قدح قصديري، ولكن الماء كانت بلون أخضر جميل يميل إلى الأصفر، ومن الجرعة الأولى وجدت طعمها مقرفا، وبرغم العطش الذي يعصرني، استرجعت أنفاسي قبل إتمام الجرعة الأولى. سأشرب الوحل، ولكن طعم هذا المعدن المسمّم أقوى بكثير من عطشي.

أنظر إلى بريفو الذي يدور حول نفسه وعيناه في الأرض كما لو أنه يبحث عن شيء بعناية كبيرة. فجأة انحنى وتقيأ، دون أن يتوقف من الدوران. جاء دوري بعد ثلاثين ثانية. هزّتني ارتعاشات إلى حدّ ركعت على ركبتي ويداي لاصقتان بالرمل. لم نتبادل أدنى كلمة خلال أكثر من ربع ساعة، وبقينا مضطربين، لا نرد إلا قليلا من المِرَّة.

ابتعد الخطر. لا أحس إلا بغثيان خفيف. ولكننا فقدنا آخر أملنا. أجهل إذا كانت فشلنا قد تسبب فيه طلاء قماش مظلتنا أم بقايا رباعي الكلورور الذي كسا سطح الخزان. يلزمنا خزان آخر وأقمشة أخرى.

لذلك فلنسرع... طلع النهار... سنهرب بعيدا عن هذا المكان الملعون وسنمشي بخطى سريعة، في خط مستقيم إلى غاية السقوط. اتبعت مثال غيومي في جبال الأند: أفكّر فيه كثيرا منذ أمس. إنني بهذا القرار، أخرق أول تعليمة صارمة في مثل هذه الحالات ألا وهي البقاء بقرب الطائرة. سوف لن يبحثوا عنا هنا.

مرّة أخرى، نكتشف أننا لسنا غرقى. الغرقى هم الذين ينتظرون. أولئك الذين يهددهم صمتنا. أولئك الذين يمزقهم خطأ شنيع. لا يمكننا إلا أن نركض نحوهم. حكى لي غيومي أيضا أنه، عند عودته من جبال الأند، كان يركض باتجاه الغرقى. هذه حقيقة كونية. قال بريفو:

- لو كنت بمفردي في هذا العالم، لمنت هنا بلا أدنى همّ.

ومشينا في خط مستقيم باتجاه شرق-شمال-شرق. إذا كنا قد تجاوزنا نهر النيل، سنتقدّم بعد كل خطوة، أكثر فأكثر، في عمق الصحراء العربية.

لا أتذكر من هذا اليوم شيئا. لا أتذكر إلا سرعتي. سرعتي نحو أي شيء، نحو سقوطي. أتذكر أيضا أنني مشيت وأنا أنظر إلى الأرض. كنت مشمئزا من السراب. من حين لآخر، صحّحنا اتجاهنا بواسطة البوصلة. كما أننا تمدّدنا قليلا لاستعادة أنفاسنا. كما أنني رميت في مكان ما المطاطي الذي كنت أحتفظ به لليل. لا أعرف شيئا آخر. لم تستيقظ ذكرياتي إلا مع رطوبة المساء. أنا أيضا كنت مثل الرمل، انمحى كل شيء بداخلي.

عند غروب الشمس، قرّرنا التوقف لقضاء الليل. أعرف أننا مجبرون على المشي أكبر مدّة ممكتة: ستجهز علينا هذه الليلة بلا ماء. ولكننا أخذنا معنا تلك الصفائح القماشية. إذا لم يكن السمّ آت من طلاء المظلة، يمكن أن نشرب ماء صباح غد. مرّة أخرى، مدّدنا فخاخ الندى تحت النجوم.

ولكن السماء كانت هذا المساء خالية من الغيوم باتجاه الشمال. تغيّر طعم الريح. كما غيّرت الريح اتجاهها. بدأنا نحسّ بحرارة الريح الآتية من الصحراء. إنها يقظة الحيوان المتوحش. أحس به يلحس أيدينا ووجوهنا...

ولكن إذا مشيت ثانية فسوف لن أقطع أزيد من عشرة كيلومترات. منذ ثلاثة أيام، ودون أن أشرب، قطعت أزيد من مائة وأربعة وعشرين...

وعند توقفنا مباشرة قال بريفو:

- أقسم لك أنها بحيرة...

- أنت مجنون...

- في هذه الساعة من الغسق، أيمكن أن يكون سرابا؟

لم أجب. تخليت منذ مدّة عن الثقة بعينيّ. ليس سرابا، ربما، ولكن ألا يكون هذا من اختراع جنوننا. كيف لا يزال بريفو يعتقد بمثل هذه الرؤى؟

ألحّ بريفو:

- على بعد عشرين دقيقة، سترى...

أضجرني هذا العناد:

- إذهب لترى... ستغيّر الجوّ الخانق هنا... إنه جيد للصحة. ولكن تأكّد بأن بحيرتك إن وجدت فعلا فهي مالحة. مالحة أم لا، فإنها عند الشيطان. على كل حال فإنها غير موجودة.

ابتعد بريفو، عيناه مثبتتان نحو الأفق. أعرفها هذه التسليات السيّدة. وأنا أفكر: "يوجد أيضا مروبصون يرمون بأنفسهم تحت عجلات القطار." أعرف أن بريفو سوف لن يعود. سيلفه دوران الفراغ ولن يستطيع العودة. وسيسقط على بعد كيلومترات قليلة. سيموت في جهته وأنا سأموت في جهتي. ولا يكتسي كل هذا أدنى أهمية.

لا أظن بأن هذه اللامبالاة التي انتابتني فجأة يمكن أن تكون بشرى خير. أحسست بنفس السكينة وأنا نصف غارق. ومع ذلك انتهزت الفرصة لكتابة رسالة وأنا ممدّد على الحجارة ستبقى بعد وفاتي. كانت رسالتي جميلة. جديرة فعلا. أقدّم نصائح حكيمة. عند قراءتها، أحسست بنوع من الاعتزاز بالنفس. سيقال عنها: "ها هي رسالة جميلة فعلا. من المؤسف حقا أن صاحبها قد توفى".

أردت أن أعرف أين أنا فعلا. حاولت جمع ريقي: منذ كم ساعة لم أبصق؟ ليس لدي ريق. إذا أبقيت على فمي مغلقا، تلصق مادة لزجة شفتيّ. تجفّف وتشكل في الخارج انتفاخا صلبا. ومع ذلك نجحت في جميع محاولات الابتلاع. ولم تمتلئ عينيّ بالضوء بعد. حينما يبهرني ذلك النور الساطع، يعني أن أمامي ساعتين من الحياة فقط.

خيّم الليل. منذ تلك الليلة، أضحى القمر كبيرا. لم يعد بريفو. تمددت على الظهر وأفكّر في البداهات. عثرت بداخلي على إحساس قديم. بحثت عن تعريفه. إنني... إنني... مبحر. أبحر باتجاه أمريكا الجنوبية، تمدّدت فوق الجسر الأعلى. يسافر رأس السارية ذهابا وإيابا، ببطء شديد، وسط النجوم. تنقص سارية أخرى ولكننا نبحر باتجاه لا يخضع لجهودي. لقد رماني بضع زنوج فوق سفينة، مقيّد اليدين.

أفكّر في يريفو الذي لم يعد. لم أسمعه يشتكي ولو مرة واحدة. جيد. يصعب عليّ احتمال الشكوى والتأوه. إن بريفو رجل.

آه، ها هو يحرك مصباحه على بعد خمسمائة مترا. لقد فقد آثاره. لا أملك مصباحا كي أرد على إشاراته. نهضت وصرخت، ولكنه لم يسمعني...

اشتعل مصباح آخر على بعد مائتي مترا من مصباحه، ثم مصباح ثالث. إلهي، ما هذا جماعة تبحث عني. صرخت:

- أووييي...

لم يسمعني احد.

واصلت المصابيح الثلاثة إشاراتها.

لست مجنونا هذا المساء. أشعر بنفسي على أحسن ما يرام. أنا في سكينة تامة. أنظر بعناية. توجد ثلاثة مصابيح على بعد خمسمائة مترا.

- أوويي...

ومع ذلك لا يسمعني أحد.

عندئذ انتابني فزع خفيف. الوحيد الذي سأعرفه. آه، أستطيع الجري: "انتظر... انتظر..." سيعودون من حيث جاءوا. سيبتعدون، سيبحثون في مكان آخر، وأنا سأسقط أرضا. سأسقط على عتبة الحياة، في وقت وجدت أذرع لتستقبلني...

- أووييي... أوويي...

- أوويي...

إنهم يسمعونني. أختنق، أختنق، ولكنني أركض، أركض. أركض باتجاه الصوت: "أوويي". أرى بريفو وأسقط.

- آه، عندما رأيت جميع تلك المصابيح...

- أي مصابيح؟

صحيح، إنه وحيد.

هذه المرّة لم أشعر بأي يأس، ولكن بغضب دفين.

- وبحيرتك؟

- كانت تبتعد كلما أتقدّم. ومشيت باتجاهها مدة نصف سعة. بعد نصف ساعة، بدت لي بعيدة جدا. فعدت. ولكنني متأكّد الآن بأنها بحيرة.

- أنت مجنون، مجنون حقا. آه، لماذا فعلت ذلك؟... لماذا؟...

ماذا فعل؟ ولماذا فعلها؟ سأبكي من الغيظ، ولكنني أجهل لماذا أنا ناقم. وها هو بريفو يشرح لي بصوت خانق:

- كم رغيت أن أجد ماء نشربه... شفتاك بيضاوان...

آه، هدأ غضبي... أمرّر يدي على جبيني، كما لو أنني أستيقظ للتوّ، وأحسست بنفسي حزينا. وحكيت بهدوء:

- رأيت مثلما أراك، رأيت بوضوح، ودون احتمال الخطأ، ثلاثة أضواء... أقول لك بأنني رأيتها يا بريفو...

أولا سكت بريفو. ثمّ اعترف أخيرا:

- نعم، يزيد وضعنا سوءا...

بسرعة، لمعت الأرض تحت هذا الجوّ، بلا بخار ماء. بدأت أشعر ببرد شديد. نهضت ومشيت. ولكن بعد قليل، انتابتني رعشة عصية الاحتمال. برد قارص يلج جسدي، ليس برد الليل، ذلك أن دمي المجفف يسري بصعوبة. اصطكت أسناني وبدأ جسدي يرتعد بعنف. لا أستطيع استعمال المصباح الكهربائي بسبب ارتعاش يدي. لم تكن لديّ حساسية خاصة اتجاه البرد ومع ذلك سأموت من البرد، ما أغرب عطش البرد هذا.

تركت مطاطي يسقط في مكان ما، تعبت من حمله تحت الحرارة. شيئا فشيئا اضطربت الريح. اكتشفت أن لا ملاذ في الصحراء. الصحراء ملساء كما المرمر. لا تشكل ظلالا بالنهار وتسلّمك عاريا للريح العاتية ليلا. لا شجرة، لا حاجز، لا صخرة كانت ستأوينا. انقضت عليّ الريح كما تفعل الخيالة في ميدان مكشوف. أدور على نفسي لأهرب منها. أنام وأنهض. سواء كنت نائما أو واقفا، سأكون معرّضا لهذا السوط الجليدي. لا أستطيع الركض، ليست لدي القوة لذلك. لا أستطيع الهروب من المجرمين، فأسقط على ركبتي، الرأس بين اليدين، تحت السيف.

أدركت ذلك بعد قليل؛ نهضت وبدأت أمشي أمامي في خط مستقيم، وأنا أرتعش. أين أنا؟ آه، لقد ذهبت، أسمع صوت بريفو. أيقظتني نداءاته.

أعود إليه، جسمي يهتز تحت وطء الارتعاش الأشبه بالحازوقة. فكّرت: "هذا ليس بردا، إنه شيء آخر. إنها النهاية." لقد جف جسمي كثيرا. مشيت كثيرا أول أمس وأمس حينما غامرت وحدي.

أحزنتني فكرة النهاية تحت البرد القارص. فضلت سرابي الداخلي. تلك الصلبان والمصابيح، وأولئك العرب. على كل، بدأ ذلك الوضع يعجبني. لا أحب أن أسوَّط كما العبد...

ها أنا على ركبتي من جديد.

أخذنا معنا قليلا من الأدوية. مائة غرام من الإثْيَر الخالص، مائة غرام من الكحول 90 درجة وقارورة يود. حاولت شرب جرعتين أو ثلاثة من الإثير الخالص. كما لو أنني أبلع سكاكين. قمّ قليل من الكحول، ولكن ذلك أغلق حلقي.

حفرت حفرة في الرمل، تمدّدت بداخلها وغطيت جسدي بالرمل. وحده وجهي كان يظهر. اكتشف بريفو بعض الحطب وأشعل نارا انطفأت بسرعة. رفض بريفو دفن جسده تحت الرمل. يفضل المشي. إنه على خطأ.

بقي حلقي جافا، إنه نذر سيء، ورغم ذلك أشعر بنفسي أحسن من ذي قبل. أحس بسكينة. أحس بسكينة أبعد بكثير مما كنت أتصوّر. أسافر رغما عني، مقيدا فوق جسر سفينة الزنوج تحت النجوم. ومع ذلك لم أشعر بنفسي شقيا.

لم أعد أشعر بالبرد، بشرط أن لا أحرّك عضلة واحدة. لذلك نسيت جسدي النائم تحت الرمل. سوف لن أتحرّك، هكذا سوف لن أتألّم أبدا. حقا إننا لا نتألم كثيرا... يوجد خلف كل هذه الهموم تنظيم التعب والهذيان. ويتحوّل كل شيء إلى كتاب صور، إلى حكايات عجيبة ولكنها قاسية قليلا... قبل قليل، كانت الريح تصيدني، ولأتخلص منها كنت أدور في مكان ضيق مثل الحيوان. ثمّ شعرت بصعوبة في التنفس: كانت ركبة تسحق صدري. ركبة. وكنت أتصارع ضد ثقل الملك. لم أكن وحيدا أبدا في الصحراء. الآن وقد أصبحت لا أؤمن بما يدور حولي، انسحبت إلى بيتي، أغمضت عينيّ ولا أحرك جفوني. جرفني شلال هذه الصور، أشعر بذلك، نحو حلم هادئ: تهدأ الأنهار في عرض البحر.

وداعا أنتم الذين أحبكم. ليس الخطأ خطئي إن كان الجسد الإنساني لا يقاوم أكثر من ثلاثة أيام بلا ماء. لم أكن أتوقع أنني سجين عيون الماء. لم أتخيل أبدا أن استقلال جسدي بهذه المدة القصيرة. نعتقد أن الإنسان يستطيع الذهاب بعيدا إلى الأمام. نعتقد أن الإنسان حرّ... فلا نرى الحبل الذي يربطه بالبئر، الذي يربطه مثل حبل السُرّة ببطن الأرض. لو يقوم بخطوة واحدة زائدة سيموت.

لست نادما على شيء باستثناء آلامكم. بتفكير رزين، أقول بأنني عشت حياة رائعة. لو أنجو سأعود إليها ثانية. أنا بحاجة إلى العيش. في المدن، لا توجد حياة إنسانية.

لا يتعلق الأمر هنا بالطيران. ليست الطائرة غاية، إنها وسيلة. لا نخاطر بأنفسنا من أجل الطائرة. كما أن الفلاح لا يحرث من أجل محراثه. ولكن بفضل الطائرة، نتمكن من مغادرة المدن وحساباتها، ونلتقي بحقيقة الريف والطبيعة.

نقوم بعمل إنسان ونعرف هموم الإنسان. ندخل في اتصال مع الريح، مع النجوم، مع الليل، مع الرمل، مع البحر. نتحايل مع القوة الطبيعية. ننتظر الفجر مثلما ينتظر الفلاح الربيع. ننتظر المهبط مثل أرض الميعاد، ونبحث عن الحقيقة عند النجوم.

سوف لن أشكو حالي لأحد. منذ ثلاثة أيام مشيت وعطشت واقتفيت آثار دروب في الرمل، وضعت كل أملي في قطرات الندى. حاولت الالتحاق بجنسي، حيث نسيت أين يقع سكنها فوق هذه المعمورة. إنها هموم كائن حي. لا أستطيع أن لا أعدّها أكثر أهمية من اختيار ملهى ليلي عند اقتراب المساء.

لا أفهم سكان قطارات الضواحي، هؤلاء البشر الذين يحسبون أنفسهم حقا بشرا، ومع أنهم حوِّلوا بقوة لا يشعرون بها إلى نمل، إلى تلك الحركات الصغيرة التي يقومون بها يوميا. بمَ يملأون، حينما يكونون أحرارا، آحادهم الصغيرة العبثية؟

ذات مرّة في روسيا، سمعت موسيقى موزار بداخل مصنع. كتبته فتلقيت مائتي رسالة شتم. لا ألوم الذين يفضلون الخوار. لا يعرفون أناشيد أخرى. ألوم صاحب الخوار. لا أحب الاستهزاء بالبشر.

أنا سعيد في مهنتي. أحس بنفسي فلاح المهابط. في قطارات الضواحي، أشعر باحتضاري أكثر مما أشعر به هنا. هنا، في نهاية المطاف، يا لها من رفاهية...

لست نادما على شيء. لعبت فخسرت. إنها طبيعة مهنتي. على كل حال، أنا شممت ريح البحر.

لا يمكن لأولئك الذين ذاقوها مرة أن ينسوا هذا الأكل. أليس كذلك يا رفاقي؟ ولا يتعلق الأمر بخطورة المهنة. إن هذه الصيغة فيها ادعاء. لا يعجبني مصارعي الثيران. أنا لا أحب الخطر. أعرف ما أحب. أحب الحياة.

أظن أن لون السماء يتحول إلى بياض. أخرجت ذراعا من الرمل. كنت قد وضعت صفيحة قماش على متناول اليد، فلمستها. لا تزال جافة. لننتظر. يسقط الندى عند الفجر. ولكن الفجر يصبح أبيض اللون دون أن يبلل ثيابنا. حينئذ تشابكت أفكاري قليلا وفكّرت: "يوجد هنا قلب جاف... قلب جاف... قلب جاف لا يعرف كيف يشكل الدموع..."

- بريفو... لنستأنف الرحلة... حلوقنا لم تجف بعد: يجب أن نمشي.

7

بدأت تلك الريح الغربية التي يجفف الإنسان في تسعة عشر ساعة تصفر. لم ينغلق حلقي بعد، ولكنه تصلّب وأصبح يوجعني. أتخيّل بداخله شيئا يكشطه. بعد قليل، ستبدأ تلك السعلة التي وصفوها لي والتي أنتظرها. يزعجني لساني. ولكن الأخطر في كل هذا هو أنني بدأت أرى لطخات لامعة. حينما تتحوّل إلى نيران سأتمدّد على الأرض وأنتظر قدري.

نمشي بسرعة. ننتفع برطوبة الصباح. كنا نعرف أننا سوف لا نستطيع المشي في منتصف النهار، تحت الشمس القائظة مثلما يقال. تحت الشمس القائظة...

ليس لدينا الحق في الترشّح بالعرق. كما لا نملك حق الانتظار. إن هذه الطراوة ليست إلا طراوة بمقدار ثمانية عشر بالمائة من الرطوبة. إن هذه الريح المصفرة آتية من الصحراء. ويتبخّر دمي تحت هذه المداعبة الكاذبة الناعمة.

أكلنا قليلا من العنب في اليوم الأول. ومنذ ثلاثة أيام، نصف برتقالة ونصف حلوى من نوع "المادلين". بأي ريق سنمضغ أكلنا؟ ولكنني لا أحسّ بأي جوع. أحس فقط بالعطش. ولكن يبدو لي أنني الآن أحسّ بشيء أكثر من العطش. أحس بآثار العطش. هذا الحلق اليابس. هذا اللسان المُجصّص. هذا الانكشاط وهذا المذاق الشنيع في الفم. إن هذه الأحاسيس جديدة بالنسبة إليّ. سيقضي الماء لا محالة على هذه الأحاسيس، ولكنني لا أتذكر بأنه الدواء الفعال لمثل هذه الحالات. شيئا فشيئا يتحوّل العطش إلى مرض، وتنتفي الرغبة في الشرب.

بدا لي أن ينابيع المياه والفواكه تمنح لي صورا أقل تمزقا. نسيت إشعال البرتقالة، كما بدا لي أنني نسيت أيضا حناني. ربما بدأت أنسى كل شيء.

جلسنا، ولكن علينا بمواصلة السير. تخلينا عن المسافات الطويلة. انهرنا من فرط التعب بعد خمسمائة مترا فقط. وشعرت بغبطة كبيرة وأنا أتمدّد على الرمل. ولكن يجب مواصلة السير. تغيّر المنظر. تباعدت الأحجار. على بعد كيلومترين أمامنا برزت الكثبان. على الكثبان بعض لطخات النباتات المنخفضة. أفضل الرمل على الدرع الحديدي. إنها الصحراء الشقراء. أنها الصحراء الفعلية. أظن أنني أعرفها...

الآن أصبحنا نتعب بعد مائتي مترا.

- على كل حال سنمشي إلى غاية تلك النباتات.

إنه الحدّ الأقصى. تأكدنا بالسيارة حينما قطعنا هذه المسافة بعد ثمانية أيام للبحث عن "السيمون" بأن هذه المحاولة الأخيرة كانت بثمانين كيلومترا. لقد قطعت إذا حوالي مائتي كيلومترا. كيف أستطيع مواصلة سيري؟

بالأمس كنت أمشي بلا أمل. أما اليوم فإن هذه الكلمات قد فقدت معناها. اليوم نمشي لأننا نمشي. ربما هكذا تفعل الثيران في الحرث. بالأمس كنت أحلم بجنات حدائق البرتقال. ولكن اليوم لا جنة بالنسبة لي. لا أؤمن بوجود البرتقال أصلا.

لا أكتشف شيئا بداخلي سوى جفاف كبير للقلب. سأسقط ولا أعرف اليأس قط. لا أحس حتى بالحزن. أتأسف: كان الحزن سيبدو لي ناعما كالماء. نشفق على أنفسنا ونشتكي لأنفسنا مثلما نفعل مع صديق. ولكنني لا أملك صديقا في هذا العالم.

حينما يكتشفونني، العينان محروقتان، سيتصورون أنني ناديت وتألمت كثيرا. ومع ذلك فإن الانفعال والندم والألم العذب هي ثروات نادرة. وأنا لا أملك منها شيئا. إن الفتيات النديات يعرفن الحزن ويبكين عند مساء حبهن الأول. يرتبط الحزن بارتعاشات الحياة الأولى. وأنا ليس عندي حزن...

الصحراء هي أنا. لا يتشكل الريق في فمي، كما أنني لا أشكل تلك الصور الناعمة التي كنت سأتأوّه من أجلها. لقد جفت الشمس ينبوع الدموع التي بداخلي.

ومع ذلك ماذا رأيت؟ مرّت نفحة أمل عليّ مثل سخرية على البحر. ما هي العلامة التي تنبّه غريزتي قبل أن تضرب ضميري. لا شيء تغيّر، ومع ذلك تغيّر كل شيء. لا تشكّل هذه البركة من الرمال وهذه التلال وهذه البقع الخفيفة من الخضرة منظرا وإنما مشهدا. مشهد لا يزال فارغا ولكنه مُحضّر جيدا. نظرت إلى بريفو. لقد أصيب بالذهول نفسه الذي أصابني، ولكنه لم يفهم بعد ماذا أصابه.

أقسم لكم بأن شيئا ما سيحدث بعد قليل...

أقسم لكم أن حيوية ما سرت في الصحراء. أقسم لكم أن هذا الغياب وهذا الصمت أصبحا فجأة أكثر إيثارا من ضجيج ساعة عمومية.

لقد نجونا، توجد آثار على الرمل...

آه، لقد فقدنا آثار الجنس البشري، تخندقنا مع قبيلة، وجدنا أنفسنا معزولين عن العالم، نسيتنا الهجرة الكونية، وها نحن نكتشف أقدام الإنسان العجيبة مطبوعة على الرمل.

- بريفو، هنا افترق رجلان...

- هنا، برك جمل...

- هنا...

ومع ذلك لم ننجُ بعد. لا يكفي الانتظار. بعد ساعات قليلة لا يمكنهم أن ينقذونا. حينما تبدأ السعلة يتسارع مشي العطش. وحقولنا...

ولكننا أؤمن بهذه القافلة المتجولة في مكان ما من الصحراء.

إذا مشينا بعد ذلك، وفجأة سمعت صياح ديك. قال لي غيومي: "في النهاية، سمعت صياح ديوك في الأند. كما سمعت أيضا هدير قطار..."

تذكرت قصته في اللحظة التي سمعت فيها صياح الديك وفكّرت: "بدءا خدعتني عيناي. ربما كان ذلك تحت تأثير العطش. قاومت أذناي أحسن..." ولكن بريفو مسكني من الذراع:

- أسمعت؟

- ماذا؟

- الديك...

- إذا... إذا...

طبعا يا أحمق، إذا هي الحياة.

تخيّلت آخر هلوسة: ثلاثة كلاب تركض الواحدة وراء الأخرى. لم يرَ بريفو شيئا، هو الذي كان ينظر أيضا. ولكننا كنا اثنين يمدّ كل واحد ذراعيه باتجاه البدوي. كنا اثنين نطلق كل أنفاس صدرينا باتجاهه. كنا اثنين نضحك من فرط السعادة...

ولكن صوتينا لا تجتاز الثلاثين مترا. جفت حبالنا الصوتية. تبادلنا كلاما بيننا بصوت خفيض ولم نلاحظه.

ولكن ها هو البدوي وجمله يظهران خلف التلة، ثمّ شيئا فشيئا يبتعدان. ربّما كان هذا الرجل بمفرده. أظهره لنا عفريت قاس ثمّ سحبه منا.

ولا نستطيع الجري.

ظهر عربي آخر على طرف كثيب. صرخنا ولكن ببطء. عندئذ حركنا ذراعينا وبدا لنا كما لو أننا ملأنا السماء بإشارات عظيمة. ومع ذلك كان البدوي ينظر دائما باتجاه اليمين...